معارك رمضانية فاصلة

في التاريخ الإسلامي

علي القاضي

الكتاب: معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام

الكاتب: علي القاضي

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

القاضي ، علي

معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام / علي القاضي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٠– ٤٣٩ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ١١٦٥١ / ٢٠١٧

معارك رمضانية فاصلة

في التاريخ الإسلامي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

يقول الله تعالى:{لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية} "الحاقة: ٢١".

إن الوجود الإسرائيلي في وسط الوطن العربي يشكل تجربة مريرة في تاريخ الإسلام والعروبة، سواء كان ذلك في الشرق أم في الغرب.

وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعضات، مما يتطلب منها أن نتأملها ونبحثها في كل وقت – الآن وفي المستقبل لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها – نواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد، فإنه من الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي والإسلامي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أجدادنا العرب في نهاية القرن الحادي عشر، فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التي أقامها الاستعمار في أرض فلسطين، التي يحرص الغرب دائماً على مساندتها وإمدادها بالمال والسلام والرجال ليمكنها من المضي في غيها وعدوانها، فإن أجدادنا منذ تسعة قرون وجدوا أنفسهم أمام دولة غبية قامت في البقعة ذاتها من أرض الشام وحرص الغرب على تزويدها بالرجال والمال والسلام ليضمن لها البقاء والاستمرار.

وإذا كانت إسرائيل تستهدف الآن – تحت ستار إقامة وطن قومي لليهود – السيطرة على جميع الدول العربية في منطقة الشرق الأوسط لتضمن إقامة دولة للصهاينة تمتد من النيل إلى الفرات.

فإن الصليبين في العصور الوسطى منا كادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى شرعوا في التوسع شرقاً وغرباً وجنوباً في العراق ومصر. وإذا كان التاريخ لا يبرئ حكام الدول العربية وساساتها الذين استكانوا لاستعمار الغرب لإسرائيل حتى تتمكن إسرائيل من الوقوف على قدميها، فإن التاريخ لم يغفر أيضاً لحكام المسلمين في مصر والشام والعراق في الماضي عدم اكتراثهم بالفرنج، حتى إن المؤرخ أبا المحاسن تساءل عن السبب في عدم خروج بعضهم لدفع الصليبيين مع قدرتهم في المال والرجال، وإذا كان أشد ما تخشاه إسرائيل ومن ورائها الدول الغربية الاستعمارية اليوم هو قيام وحدة عربية وإسلامية تجمع بين صفوف المسلمين وتضيف إلى وحدة الهدف وحدة الصف فإن الصليبيين في العصور الوسطي استماتوا في منع تحقيق وحدة الصف العربي.

وهكذا يبدو أن التجارب التي تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها قد سبق أن تعرضت للأساليب نفسها من الخيانات والدسائس والمؤمرات من قبل، وبقي علينا أن نستفيد من هذه التجارب، ونأخذ منها العبرة التي تعيننا في التغلب على أكبر خطر يواجه المسلمين اليوم.

على أن أعظم درس تعلمه المسلمون طوال تاريخهم منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى وقتنا هذا هو أن الجهاد الإسلامي الصادق والصلة القوية بالله تعالى وراء عزة المسلمين ومنعة بلادهم وخوف عدوهم منهم، فلما غابت هذه الفرصة طمع فيهم الغرب واستهان بهم، وغزوهم في عقر دارهم

وأذلوهم أيما إذلال، وأحسب أن مؤلف هذا الكتاب قد استفزه ولع رجال الإسلام وقادته العسكريين ومعاركهم الحاسمة التي مازالت تدرس في الكليات الحربية في جميع أنحاء العالم، فقد هاله تكالب المسلمين على الدنيا الفانية وملذاتها وتهافتهم على العرض الزائل وتناسيهم لعزة وكرامة المسلم التي أصبحت لا ظل لها في عالم الأقوياء اليوم.

كما أحسبه صادقاً أراد أن يذكر مسلمي اليوم، بعد أن سيطر عليهم اليأس من الموقف الحالي وتخاذل الحكومات من الانتفاضة الفلسطينية والموقف السلبي من الصلف، والتعنت الإسرائيلي، والتفاخر بعظمة أجدادهم وعزتهم.

وهذا الكتاب يبين لنا أن المسلمين يضعفون أمام أعدائهم إذا تفرقوا واختلفوا وغرتهم الحياة الدنيا، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى رشدهم، إذا ما ظهر فيهم القائد الحكيم الذي يعمل لتحقيق وظيفة المسلمين في الأرض ولا يهمه المال ولا الجاه، ولا تغريه ملذات الحياة الدنيا وبذلك ينتصرون على عدوهم ويعيدون للإسلام مجده، وقد تكرر هذا مرات كثيرة عن طريق المعارك الرمضانية الفاصلة على مدى تاريخ المسلمين، وما هي إلا تذكرة للمسلمين تبعد عنهم اليأس والقنوط، وتدفع في نفوسهم حب العودة إلى الله والأمل في المستقبل، ولكن على جميع الأمة الإسلامية أن تعود إلى خالقها، وتتمسك بإخوتها وترك حب الدنيا وبذلك ينصرون الله فينصرهم الله، والله ولي التوفيق.

علي القاضي

الجهاد في سبيل الله

شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد للدفاع عن الإسلام، ورفع الظلم عن الناس، ونشر راية الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فالقتال في الإسلام يكون لدفع الباطل، ونصر الحق وبذلك لا ينتشر الفساد في الأرض، فتهدم أماكن العبادة في الديانات المختلفة وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} "الحج:٤٠".

فالباعث على الجهاد في الإسلام أمران:

الأول: دفع الظلم ومنع الفتنة وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} "البقرة: ١٩٣".

والاعتداء على المسلمين يرد بمثله يقول الله تعالي في ذلك: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} "البقرة:١٩٠".

ثانياً: التمكين للدعوة الإسلامية عن طريق إزالة الحواجز التي يقيمها الملوك والحكام الظالمون أمام دعوة الإسلام، وبذلك يعرف الناس الإسلام فإذا عرفواه فقد تبين لهم الرشد من الغي والحق من الباطل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فلا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا".

والجهاد في سبيل الله مستمر إلى أن تقوم الساعة ولكن يلاحظ أن أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام بين الحق والباطل كانت في شهر رمضان.

وبذلك أتيح للناس أن يعرفوا الإسلام على حقيقته.

ورسالة محمد ﷺ لناس جميعاً على امتداد الزمان والمكان فقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين وشريعة الإسلام جاءت بمبادئ واضحة وفضائل الإسلام دافعة للشر حاملة على الخير، ولذلك كان لابد لهذه الرسالة من قوة تحميها من ظلم الظالمين وتزيل العقبات المختلفة التي توضع أمامها، وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} "الأنفال: ٦٠".

والله تعالى يوصي بالعفو والصفحخ إذا كان في ذلك فائدة للدعوة الإسلامية يقول الله تعالى: {ودَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْبَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ نَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } "البقرة:١٠٩".

فإن كان هناك رد للعدوان فيكون بمثل ما فعل الأعداء يقول الله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ } "البقرة: ١٩٤".

والحروب في الإسلام شرعتها الرحمة وأظلتها الرحمة وأنهتها الرحمة – ومن الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد، وأن يرد الاعتداء بمثله لسلامة الناس حتى يعيشوا في راحة – وكلمة الحق تسري بينهم بدون حواجز تحول دون ذلك يقول الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} "البقرة:١٩٣".

والإسلام ارتقى بفكرة الحرب وسما بأسبابها فلا مكان في الإسلام للقتال بهدف العدوان أو الرغبة في السيطرة أو السعي إلى فرض نفوذ أو امتداد حدود.

وقد دعا الذين آمنوا إلى أن يدخلوا في السلم كافة فقال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} "البقرة: ٢٠٨".

ذلك لأن الإسلام دين الفطرة، ولذلك فقد حصر فكرة الحرب في أضيق الحدود فجعلها محصورة في إنقاذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما جعلها للدفاع عن النفس وعن المال وعن العرض فقال: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } "الحج: ٣٩".

أو لتأديب ناقضي العهد فقال الله تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } "التوبة: ١٢".

فإن رغبوا في السلام فإن الإسلام يرغب فيه فقال الله تعالى: {فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين} "البقرة: ١٩٢".

ولعل المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي يعيش فيه على مدى التاريخ أناس من غير المنتهين إليه دينا وهم يحسون بالأمن والاطمئنان والعدالة والمساواة إلى درجة أدهشت الناس في جميع الأماكن والأزمان، وفي ذلك كتب المستشرق الفرنسي "جوتينيه" في كتاب "أخلاق المسلمين وعاداته".

يقول: "مما نشاهده في داخل البلاد الإسلامية قديماً وحديثاً: أن الإسلام يوجد دائماً بين جناحيه من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلنطي طوائف من

غير المسلمين، يهود ونصارى ومجوس وطوائف من المسلمين المبتدعين خوارج وأباضية، ولم يفكر المسلمون يوماً، حتى وهم في أشد أوقات حميتهم أن يضطهدوا أحداً غيرهم – ثم يقول: "إنها فضيلة تستحق كل الإعجاب والتقدير".

وفي بداية الإسلام مكث النبيﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ثلاثة عشر عاماً في مكة ولقي ما لقي من العنت والمشقة والإيذاء.

كما لقي الذين دخلوا في الإسلام الإيذاء والتعذيب وقتل بعضهم بعد تعذيبهم، ثم هاجر إلى المدينة، ومازال الكفار يعملون على اقتلاع الإسلام من جذوره حتى نزل قوله تعالى: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } "التوبة: ٣٦".

وقد أراد بعض المسلمين أن يكرهوا أبناءهم على الدخول في الإسلامي فنزل قوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } "البقرة: ٢٥٦".

وكان النبي ﷺ يقول: لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاصبروا وكان يقول: "سيروا باسم الله في سبيل الله وقاتلوا أدعاء الله ولا تلغوا "تخونوا" ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة".

وكانت نهاية حروب النبيﷺ تنتهي بأحد ثلاثة أمور:

١ – الموادعة وفي ذلك يقول الله تعالى: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } "الأنفال:٦١".

٢ – الصلاح بانتهاء القتال على أساس العدالة والوفاء بكل ما التزم به الطرفان من حقوق.

٣ –الانتصار للمؤمنين والاستسلام من الكافرين.

معاملة المهزومين:

والإسلام يأمر بمعاملة المهزومين معاملة إنسانية كاملة فيها العفو والصلاح، وهذا ما ظهر في كل غزوات النبي، وفي فتح مكة قال النبي لقريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيرا.. أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: أقول لكم ما قاله أخي يوسف "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"، اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وهذه السماحة لا يوجد مثها في أية من الحضارات قديمها وحديثها.

الجهاد "رهبانية الإسلام": قال النبيﷺ: في كل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد، ويتشابه المجاهد مع الراهب في ثلاثة أمور، ويختلف في أمر واحد.

يتشابه في:

١ – اعتزال الناس جملة والخروج من الحياة التي يحياها الناس لأنفسهم متمتعين بالحياة الدنيا وزينتها.

٢ – الراهب يعتزل النساء، والمجاهد التلقي بعتزل النساء وينقطع عن الأولاد في مدة الجهاد وهم فلذات أكباده.

٣ – كلاهما قدم نفسه لله تعالى الراهب بالعبادة والمجاهد قدم نفسه ليحمي الحق الذي أمر الله تعالى بنصره.

ويختلف في أن الراهب يعتزل الناس بعبادته الانفرادية، والمجاهد يعتزل الناس ليحمي النا وينصر دين الله، والإسلام منع الرهبنة، لأنها فرار من الحياة وتبعتها، ولأنه يريد من المؤمن أن يكون نافعاً للناس، فالعبادة في الإسلام إيجابية، وهي مشاركة في رفعة النوع الإنساني، ولذلك فإن الإسلام يعد كل نفع لأفراد المجتمع، يقول النبيﷺ "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو ذو كبد إلا كان له بها صدقة"، وروحانية الإسلام فيها سمو نفسي، وتحرر من الجسم وشهواته، وتحسين العلاقات الإنسانية، وأن يألف المؤمن الناس ويألفونه.

حب الجهاد:

والإسلام يربي المجتمع الإسلامي على حب الجهاد في سبيل الله تعالى يقول في ذلك: { وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ **} "الحج: ٧٨".**

كما أنه يغير مفهوم الموت بالنسبة للشهداء فهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، وهذا يعطي للمجاهدين قوة دافعة يزيدها معرفتهم بأن الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله يقول الله تعالى: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } "آل عمران ١٦٩ : ١٧١".

الإعداد المعنوي:

والإسلام يعد المسلمين الإعداد المعنوي الكامل للجهاد في سبيل الله عن طريق وصلهم بالله تعالى، وتمسكهم بقيم الإسلام، ويوضح الهدف من القتال ضد أعداء الإسلام، وتأكيد أن النصر ليس غاية في ذاته ثم التحريض على القتال والإعداد الكامل للمعركة، وهكذا يتبين لنا أن الحرب في الإسلام كان أمراً لابد منه لإقامة الحق وإبطال الباطل، ولا يمكن أن تتم الدوة إلى الله تعالى إلا إذا أزيلت الحواجز البشرية حتى يتم تبليغ الرسالة، فالله تعالى أرسل رسوله وأنزل كتابه "فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها".

ثم إن الحروب في الإسلام حروب مثالية تعلم الإنسان المحارب أن يحترم إنسانية عدوه، فهدف المسلم إحقاق الحق وإبطال الباطل.

والجهاد في سبيل الله عبادة قد يكون ثوابها أكبر من ثواب الصلاة والزكاة والصيام والحج، لأن الهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، وقد وضح القرآن الكريم أهداف الجهاد في سبيل الله فقال: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } "البقرة: ١٩٣".

وقد استبدل الإسلام نظرية الكم بنظرية الكيف في الجهاد، فالروح المعنوية العالية تعطي صاحبها مناعة ج ضد الحرب النفسية فلا تؤثر فيها أحرج المواقف وسورة الأحزاب مثلاً تعطينا صورة لأصحاب الروح المعنوية العالية، فقد رأوا إن الأحزاب قد أقدموا من كل جانب بقوات لا يقدر أحد على مقاومتها فما زادهم ذلك إلا إيماناً يقول الله تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } "الأحزاب: ٢٢".

وفي سورة آل عمران يقول الله تعالى: { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } "آل عمران ١٧٢: ١٧٤".

وهكذا نجد أن القتال في الإسلام هدفه السامي الذي حدده الله تعالى ليرفع به من مستوى الإنسانية، وليقيم العدالة في هذه الأرض.

وقد اشتهر المسلمون بأنهم يحررون الشعبو من عبادة الحكام وظلمهم فكانت الشعوب تفتح للمسلمين صدورها، وتتعاون معهم تعاوناً كاملاً يقول مونت جمري: "إن المسلمين كانوا يستقبلون في كل مان يصلون إليه بالترحاب باعتبارهم محررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم".

دور الصوم في الجهاد:

الصوم صلة وثيقة بين العبد وربه فقد فرضه الله تعالى ليصل المسلم الصائم إلى مرحلة التقوى التي تؤهله لأداء وظيفتهي في هذه الحياة وهي عمارة الأرض طبقاً لمنهج الخالق سبحانه وتعالى وفي رمضان تقوى مراقبة الله تعالى بالصوم وبقراءة القرآن وبصلاة القيام، والصائم يجد الجزاء القريب في الفتة القرآنية التي تأتي بين آيتي الصوم في قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } "البقرة: ١٨٦".

فهذه اللفتة موجهة إلى أعمال نفس المسلم الصائم، والصائم المحتسب لا يجد في نفسه اضطراباً ولا انزعاجاً، بل يكون راضياً محتسباً مطمئناً هادئاً.

والمسلم قبل أن ينطلق إلى الجهاد في المعركة مع الأعداء يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر مع نفسه، ومع الشيطان ومع المجتمع غير الملتزم، ولم يكن من المصادفة أن يفرض الصوم في العام الذي فرض فيه الجهاد في سبيل الله لرد العدوان ونشر الإسلام، هو تقوى الإرادة العزمة ومجال اتصال المسلم بربه اتصال طاعة وانقياد، والجندي الذي يؤخذ إلى ميدان المعركة بدون إعداد نفسي وعقلي وجسمي هو جندي فاشل، ولذلك فإن صوم رمضان يعطي المسلم المجاهد في سبيل الله دفعة معنوية قوية تجعله قادراً على أن ينتصر على أعدائه انتصاراً واضحاً فتكون هذه المعركة الرمضانية معركة فاصلة بين الحق والباطل، تظهر الإسلام وتبطل الكفر.

ومن أهم المعارك الرمضانية الفاصلة في تاريخ الإسلام:

١ – معركة بدر الكبرى (وكانت في العام الثاني من الهجرة).

٢ – فتح مكة (وكانت في العام الثامن من الهجرة).

٣ – فتح الأندلس (وكان ذلك في عام ٩٢هـ).

٤ – معركة القادسية (وكانت في العام الخامس عشر للهجرة).

٥ – معركة ملازكرد (وكانت في ٤٦٣ هـ).

٦ – معركة الزلاقة (وكانت في ٤٧٩ هـ).

٧ – معركة حطين (وكانت في ٥٨٣ هـ).

٨ – معركة عين جالوت (وكانت في ٦٥٨ هـ).

٩ – معركة العاشر من رمضان (وكانت في عام ١٣٩٣هـ).

غزوة بدر الكبري في العام الثاني للهجرة

علم النبيﷺ أن عير قريش راجعة من الشام ومعها أربعون رجلاً لحمايتها بقيادة أبي سفيان، فندب المسلمين حتى يأخذوا العير ليكون فيها بعض العوض عما أخذه المشركون في قريش من المسلمين المهاجرين إلى المدينة فندب الرسول المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله أن ينصركم فخف بعضهم استجابة لنداء النبي وثقل بعضهم لأنهم لم يتوقعوا قتالاً، وكانت حمولة العير نحو ألف بعير، وكان أبو سفيان يتجسس على أخبار النبي وأصحابه ويتعرف حركاتهم، وكان يسأل من يلقى من الركبان حتى أصاب خبراً بأن النبي استنفر أصحابه للقاء أبي سفيان وغيره، وقد أرسل أبو سفيان ضمضم الغفاري إلى قريش، فذهب ضمضم وخرج في بطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع أنفه وحول رحلة وشق قميصه ليستدعي الناس وينبههم إلى ما يقول ثم نادي: يا معشر قريش اللطيمة، واللطيمة معناها الإبل التي تحمل الحرير وغيره، فاستعدت قريش وخرجت للقتال، ثم بلغهم أن أبا سفيان مال على طريق بدر ونجا بعيره، ولكن قريشاً استعدت للقتال حتى بعد أن بلغهم نجاة أبي سفيان بالعير.

خرجت قريش في خمسين وتسعمائة مقاتل منها مائتا فارس يقودونها، وأعداد كثيرة من الإبل ومعهم قيان يضربن بالدفوف وتغنين بهجاء المسلمين.

خروج رسول الله:

خرج رسول الله بنحو تسعة وثلثمائة من المهاجرين والأنصار ليلقوا العير، ولكنهم لم يدركوها بعد فرار أبي سفيان بها الذي جعل بدراً عن يساره والبحر عن يمينه وعرف النبي بأخبار قريش، ورأى أنها الحرب لا محالة – واستشار النبيﷺ أصحابه من المهاجرين، فقالوا وأحسنوا القول ومنهم – المقداد بن عمرو الذي قال:

"يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسي: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فقال له رسول الله خيراً ودعاً له، وأراد النبي أن يطمئن إلى موقف الأنصار، لأن العهد الذي بينهم وبينه لا يلزمهم بالخروج إلى القتال خارج المدينة فقال: أشيروا على أيها الناس، فقال سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: أجل فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله.

وقد سر رسول الله بقول سعد وقال: "سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين العير أو النفير، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم، ولم يكن مع النبي إلا فرسان وأربعون بعيرا – فكانوا يتبادلون البعير كل أكثر من أربعة على

بعير والنبي مثلهم وقد أرادوا إعفاء النبي من السير مثلهم فقال: لست أقل منكم قوة ولا أقل منكم طلباً للأجر، وعندما رآهم المشركون استرهبوهم مع قلة عددهم وعدتهم، ذلك لأن الجيش الإسلامي خرج للقتال استجابة لله ولرسوله وهو يريد إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة بينما المشركون يخافون من القتال ويترددون فهم لا يحسون بأن الله معهم ولا يريدون فراق الحياة الدنيا، بينما المؤمنون يرجون الشهادة ويستغيثون بالله تعالى والله يلقي في نفوسهم الطمأنينة ويمدهم بالملائكة وهم واثقون بنصر الله أو الشهادة وهما الفائزون في كلتا الحالتين يقول الله تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } "الأنفال ٩-٣١" ثم يقول بعد ذلك {ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيدِ الكَافِرِين}

جيش المشركين:

وكان مع الجيش أعداد كبيرة من الجمال وكان قائدهم العام أبو جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل وقد خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله وتحركوا بسراعة فائقة إلى بدر، ولما وصلوا إلى الجحفة تلوا رسالة من

أبي سفيان يقول لهم فيها "إنكم إنما خرجتم لتحموا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا".

وقد هم جيش المشركين بالرجوع إلى مكة، ولكن أبا جهل قال في كبرياء وعطرسة "والله لا نرجع حتى نرد بدار فنقيم بها ثلاثا ننحر الإبل ونطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف القيان لنا وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً، ورجع بنو زهرة".

ويلاحظ أن جيش المشركين كثير العدد والعدة، ولكنه فاقد الإيمان على عكس جيش المسلمين الذي يحس بأن الله معه وقد أكرمهم الله تعالى إذ غشيهم النعاس أمنة منهه وأنزل لهم المطر الضعيف ليلين لهم الأرض تحت أقدامهم واستبدلوا بطلب العير طلب العزة، وقد أرادوا المال ابتداء ثم أرادوا إعلاء كلمة الله انتهاء.

وقد قدر الله تعالى الواحد من أهل الإيمان في حال القوة التي لا ضعف فيها بعشرة من أهل الكفر فقال: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ } "الآنفال ٦٥".

وكان اختيار مكان المعركة بتوفيق من الله تعالى، وقد نزل الرسول على أقرب ماء من بدر وعرض الأمر على الصحابة فجاء إليه الحباب بن المنذر بن الجموح وقال: يا رسول الله أهذا المنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا أن نتقدم فيه أو نتأخر؟ أمن هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال رسول الله: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله هذا ليس بمنزل امض بالناس حتى نأتي أدنى ماء

من القوم فننزله ثم نعود ما وراءه، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي برأي الحباب وبني الحوض على البئر التي اختارها وامتلأت ماء، لأنه آل إليها كل ماء الآبار التي غورت.

وقد ابتدأت المناوشات برجل من بني مخزوم ظن أنه يستطيع أن يهدم الحوض الذي بناه المسلمون فقال:

"لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأقومن دونه"، فخرج إليه أسد الله حمزة بن عبدالمطلب فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله إلى نصف ساقه ثم ساورا إلى الحوض فضربه حمزة حتى قتله.

ورأى رسول الله أن يكون في مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده فاتخذ له عريشاً على موقع من الأرض، فقال معاذ بن جبل: يا بني الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءناه، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناضحونك ويجادهون معك فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير، وبني له عريشاً وكان يراقب حركة جنده، وعندما أتى الرسول جيش قريش تضرع إلى ربه قائلاً: "اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها اللهم نصرك الذي وعدتني الله أهلكهم الغداة".

وكان أبو بكر مع رسول الله ومعاذ بن جبل في فريق من الأنصار يطوفون حوله والرسول دائم الدعاء والضراعة إلى ربه يقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعدها في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني وريفع يديه إلى السماء

حتى سقط الرداء من على منكبيه، وجعل أبو بكر يسوي عليه رداؤه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال: "يا رسول الله بعد مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك"، وكان النبي يقول لأصحابه "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً إلا أدخله الله الجنة".

نزول الملائكة:

وقد أغفي النبي ﷺ إغفاءه قليلة ثم رفع رأسه وقال: أبشر يا أبا بكر أتانا نصر الله هذا جبريل، أخذ بعنان فرسه يقوده ثم خرج من باب العريش وهو يثب في الدرع، ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر، ثم أخذ بعض الحصبان واستقبل قريضاً وقال، شاهدت الوجوه، ورمى بها في وجوههم، فما كان من المشركين أحد إلا أصاب عينيه من الحصباء وفي ذلك يقول الله تعالى: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"} "الأنفال ١٧".

وقد أصدر النبي ﷺ أوامره بالهجوم وقال: شدوا وحرضهم على القتال قائلاً: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنه – ثم قال: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقام عمير بن الحمام وقال: بخ بخ، فقال النبي: ما يحملك على قول بخ بخ؟ قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها.

فقال النبي فإنك من أهلها فأخرج عمير تمرات فجعل يأكل ثم قال: لئن لنا حييت حتى آكل تمرات هذه إنها لحياة طويلة فرمي بما كان معه من التمر ثم أقبل على الجهاد وهو ينشد:

ركضـــا إلـــى الله بغيـــر زاد ألا التقـــى وعمـــل المعـــاد
والصبر في الله على الجهاد وكـــل زاد عرضـــة النفـــاد

غير التقى والبر والرشاد

فما زال يجاهد حتى قتل، ونزل النبي إلى الميدان يقاتل أشد القتال، ومعه أصحابه فانكسرت قريش وصاح النبي وهو يرى نصر المسلمين، شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس.

القيادة الحيمة:

أول مظاهر القيادة الحكيمة أن القائد كان في وسط جنده في القتال وكان يشرف عليهم ويوجههم ويشترك معهم روي عن على بن أبي طالب قال: كنا إذا اشتد الخطب وحمي الوطيس اتقينا برسول الله فما يكون أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقرب إلى العدو منا.

ومن مظاهر القيادة الحكيمة:

المساواة بينه وبين جنده فلقد كان يساوي بينه وبين جنده في كل شيء من الحقوق والواجبات الحربية، ومن مظاهر القيادة الحكيمة إشعار الجند بأنهم يعملون مختارين لا مجبرين وأنهم يطلبون الثوات من ربهم فإن انتصروا فذلك من فشل الله وإن استشهدوا نالوا شرف الشهادة وجنة عرضها السموات والأرض، وفي ذلك يقول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } "التوبة: ١١١".

وكان رسول الله لينا مع جنده رحيماً في تعامله معهم فكانت القلوب مستجيبة لكل ما يطلب منها، ومنها حصره على جنده وإشفاقه عليهم فهم عصابة الله فإن هلكوا فلن يعبد في الأرض.

ومنها إشراكهم معه في تحمل التبعة بالشورى ويأخذ برأيهم، وبذلك يحسون بالرسالة التي انتدبهم الله لها.

التنظيم:

معركة بدر هي أول معركة بين المسلمين والكفار، ولذلك فإن تنظيم الجيش يعتبر من أهم عناصر المعركة اتباعاً لقول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ } "الصف: ٤".

وقد روى ابن إسحاق بسنده أن رسول الله عدل صفوف أصحابه وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن عزنة وهو متقدم الصف فوضع رسول الله القدح في بطنه، وقال له: استوِ سواد – فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني "أي مكني من القصاص"، فكشف رسول الله ﷺ بطنه وقال: استقد يا سواد فاعتنقه سواد، فقال رسول الله: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال سواد: يا رسول الله حضرنا ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بالخير.

وأصدر رسول الله أمره إلى الجيش ألا يحمل على العدو أحد إلا عندما يصدر لهم الأمر بذلك قال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل وجعل شعار الصحابة في هذه الحرب "أحد أحد". وقد جعل رسول الله على المهاجرين

على بن أبي طالب وعلى الأنصار رجلاً منهم سعد بن معاذ وذلك ليتنافس المتنافسون.

المعركة:

لقد بدأ القتال بالمبارزة فخرج عتبة بن ربيعة ومعه أخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد يطلبان المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: مالنا بكم من حاجة نريد أكفاء من قومنا ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فاختار لهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب وحمزة وعلي بن أبي طالب، فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم وقالوا لهم: أكفاء كرام فتبارزوا وكان النصر للمؤمنين وقتل الكفار الثلاثة وبعد ذلك أخذ النبل يرمي من الجانبين، وعندما برز المشركون ذلك تجمعوا، وعندئذ تقدم رسول اللهﷺ يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد وأخذ جعبة من تراب فاستقبل بها قريشاً، وقال: شاهت الوجوه، فلم يكن أحد إلا أصيب منها ثم قال لأصحابه: شدوا فالتحم الجيشان والنبي بنظر من فوق العريش وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده وهزم قريشاً يوحده وفي ذلك يقول الله تعالى: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} "الآنفال: ١٧".

وسعد بن عبادة ومعاذ قائمان على باب العريش متوشحين بسيفيهما في نفر من الأنصار يحرسان رسول الله ويخافان كرة قريش، وقد أخذ جيش المسملين في قتل صناديد قريش الذين كانوا يفتنون الناس عن دينهم، وقد اشتدت المنازلة بالمشركين، وعلموا أن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وأن الله عزيز حكيم.

نهاية المعركة:

اقتربت المعركة من نهايتها وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت هزيمة المشركين.

مصرع أبي جهل:

قال عبدالرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم أمن مكانهما، فقال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل فقلت: يا أخي ما تنصنع به؟

قال: أخبرت أنه يسب رسول الله، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سواده سوادي حتى يموت أحدنا منا، فتعجبت لذلك.

قال: وغمزني الآخر فقال لي مثل ذلك، فلم ألبث أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس.

فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه.

قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله.

فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتله.

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

فقالوا: لا.

فنظر رسول الله إلى الصبيين فقال: كلاكما قتله وأمر رسول الله بسلبه لمعاذ بن الجموح ومعوذ بن عفراء.

ومر عبدالله بن مسعود بالقتلى، فوجد أبا جهل فيهم لا يزال به رمق فجثم على صدره يبغي الإجهاز عليه وتحرك أبو جهل يسأل لمن الدائرة؟ فقال عبدالله: لله ورسوله، ثم قال له: هل أخزاك الله يا عدوا الله؟

قال له: وبماذا أخزاني؟ وتفرس في وجه عبدالله ثم قال له: ألست روعينا بمكة فجعل عبدالله يهوي عليه بسيفه حتى خمد.

نتائج المعركة:

كانت نتائج هذه المعركة بعيدة الأثر في حياة المسلمين فزعما أن قريش قتلوا وكان عدد من قتل من المشركين سبعون وعدد من أسر سبعون.

وفي نهاية المعركة كان رسول الله حريصاً على أن يعرف ما آل إليه أبو جهل الذي سمي فرعون هذه الأمة، وقد اشترك عدد من المسلمين في قتله لزنه كان محاطاً بعدد من مشركي قريش، وكان آخر من أجهز عليه عبدالله بن مسعود الذي جاء ومازال به رمق فوضع رجله على عنقه ثم قال: أخزاك الله يا عدو الله ثم حز رأسه وذهب بها إلى رسول الله، وقد استشهد من المسلمين أربعة عشر ولم يؤسر من المسلمين أحد، وبذلك تحقق معنى الآية الكريمة:

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } "التوبة: ١٤– ١٥".

وقد دفن رسول الله قتلى بدر في القليب، وذلك ليواري سوآتهم ويحمي أجساهم من سباع البهائم والطير، وبذلك حافظ النبي على كرامة الإنسان حتى ولو كان غير مسلم.

الأسرى:

استشار رسول الله أصحابه وقال لهم ما تقولون في الأسرى، قال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وقال عمر يا رسول الله أخرجوك وعذبوك فاضرب أعناقهم.

استمع إليهم رسول الله كما استمع إلى غيرهم مثم تركهم ليتبدروا ما قيل ثم خرج عليهم وقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وإن الله تعالى ليشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبرهيم إذا قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عاصني فإنك غفور رحمي، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى الذي قال: { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحكيم} "المائدة: ١١٨".

وإن مثلك يا عمر كمثل نحو إذ قال: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا} "نوح :٢٦".

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى إذ قال: { رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } "يونس: ٨٨".

وقد رأى رسول الله أن يأخذ بمبدأ الفداء إذ فيه نفع لجماعة المسلمين.

وقد أخذ النبي الفداء من ذوي الثراء من بني هاشم كما كان يقبل من الفداء نوعاً معنوياً وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله، وقد من رسول الله على عدد من الأسرى الذي كانت تصرفاتهم في مكة سليمة إزاء المسلمين أو كانوا عاجزين عن الفداء.

ومن طريف ما يذكر أن مصعب بن عمير بعد انتهاء المعركج مر بأخيه ابن عزيز الذي خاض المعركة ضد المسلمين وأسر، مر به وأحد الأنصار يشد يده فقال مصعب للأنصاري: شد يديك عليه فإن أمه ذات متاع لعلهم تفديك منه فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بأخيك؟

قال: إنه أخي دونك، وقد نزل القرآن الكريم يبين خطأ المسلمين في أخذهم الفداء من الأسرى، فهم بذلك يتيحون الفرصة لهم أن يحاربوا المسلمين مرة أخرى فنزل قوله تعالى: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } "الآنفال: ٦٧".

الأنفال:

أول غنيمة غنمها المسلمون من الكفار بعد معركة بدر.

وكان قسمة الغنائم على حسب أوامر الله تعالى فالخمس لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والباقي للمسلمين الذين قاتلوا وانتصروا يقول الله تعالى في ذلك: { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } "الآنفال: ٤١".

آثار معركة بدر:

كانت آثار معركة بدر في العرب كبيرة بعيدة المدى، وكان هذا النصر منبهاً للعرب بحقيقة الدعوة الإسلامية وسلامتها وقوتها، وبذلك صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وسمي يوم النصر يوم الفرقان إذا انتقل المسلمين من مستضعفين في الأرض إلى أقوياء يقول الله تعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } "الآنفال: ٢٦".

وأصبح العرب ينطرون إلى الإسلام على أنه القوة الحقيقية في البلاد العربية وأخذ الناس يفكرون في الدخول في الإسلام، وفي المدينة وما حولها صار الإسلام هو القوة المرهوبة، وظهر النفاق في المدينة من الأوس والخزرج واليهود الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ليكيدوا للإسلام على قدر استطاعتهم، ولكن لم يكن هذا موجوداً إلا بعد نصر المسلمين في بدر ونزلت سورة المنافقون تبين حقيقتهم وتنبه المسلمين إلى خطورتهم.

وفي رمضان من عام معركة بدر فرض صيام رمضان وزكاة القطر وكان عيد الفطر في هذا العام أول عيد للمسلمين.

مكة تتلقى نبأ الهزيمة:

تلقت مكة نبأ هزيمة المشركين في معركة بدر باستنكار وتعجب فلما استبان لهم صدق الهزيمة صعق نفر منهم، فهلك لتوه وقد جوبهوا بعار الهزيمة ويهود المدينة ومشركوها كذبوا الخبر. وقد انطوى أهل مكة على أنفسهم يداوون

جراحهم ويعلنون أن يوم الانتقام قريب، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام ونقمة على محمد وأصحابه.

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم النصر المسلمين أرسل رسول الله بشيرين إلى أهل المدينة أرسل عبدالله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة.

وقد أقام رسول اللهﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاث أيام، ثم تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسرى من المشركين، ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين وقال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكني ظننت أنها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال له رسول الله: صدقت ثم دخل المدينة مظفراً منصوراً فأسلم عدد كبير من المشركين وقدم الأسارى بعد بلوغ الرسول المدينة بيوم فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيراً فكان والصحافةج يأكلون التمر، ويعطون لأسراهم الخير علماً بنصيحة رسول الله، وفي فرحة المسلمين، وبانتصارهم في بدر نزل اليهود إلى رسول الله يقولون له: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم، أما والله لئن حاربناك لعلمت أننا نحن الناس، ونزل الوحي على رسول الله ينذر اليهود بسوء الخاتمة فقال: { قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ } (آل عمران: ١٢) الآية تذكير بما وقع في بدر.

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر المؤمنين على الكافرين وكانت عبرة لمن يعتبر وجعلت المسلمين يعلمون أن الله ناصرهم ماداموا ناصرين لدينه.

وأساس النصر يكون بالصلة القوية بالخالق سبحانه وتعالى وبالاستعداد الكامل حسب القوة التي في أيديهم وصدق الله تعالى القائل: {إن تنصروا الله ينصركم ينصركم ويثبت أقدامكم} "محمد: ٧".

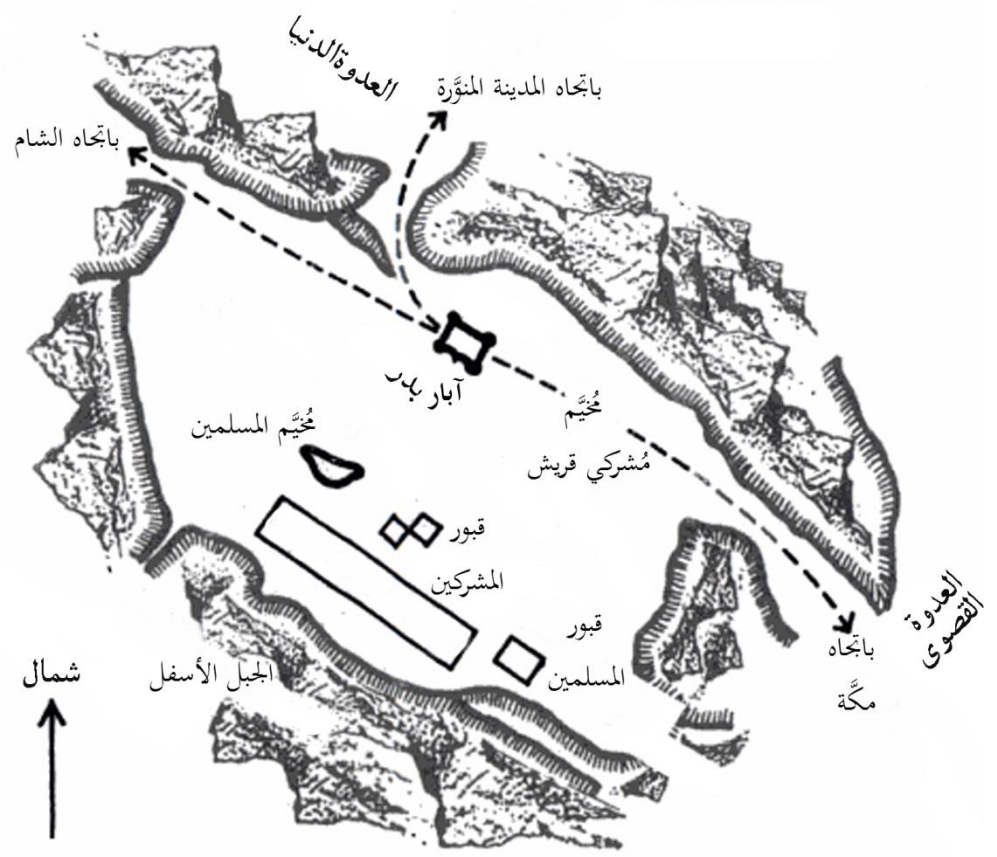

غزوة بدر

فتح مكة في العام الثامن من الهجرة

رُبي النبي صلوات الله وسلامه عليه من أسلم في مكة تربية إسلامية متكاملة حتى حققوا معنى الآية الكريمة: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } "الإنعام "١٦٣" وفي الوقت نفسه فاضت كأس قريش ظلماً وعدواناً وجحدوا بالحق وصدا عن سبيل الله بكل الأساليب حتى التي تنكره عادت العرب في الجاهلية، ومن بقي من دين إبراهيم عليه السلام في حرمة مكة وحرمة الاعتداء على من سكنها وصدهم عنها من يريد أن يدخلها معتمراً نقض العهد والاعتداء بالقتل والمطاردة على خزاعة التي دخلت في عهد النبي على الصلاة والسلام، وقد أراد الله سبحانة وتعالى أن ينهي هذا الظلم الذي لا يريد أن يقف عند حد، وأن يدخل رسوله والمسلمين مكة فاتحين، وأن يطهر بيته من الرجس من الأوثان ومن قول الزور، وأن يعيد إلى مكة مكانتها الأولى فتعود مثابة للناسة وأمناً. ويصبح البيت كما كان مباركاً وهدى للعالمين.

لذلك هيأ الله سبحانه وتعالى الأسباب حيث دعت قريش إليها وذلك أن معاهدة الحديبية كان في أحد بنودها أن من دخل في عهد قريش وعقدها دخل فيه ومن دخل في عهد محمد وعقده دخل فيه. فدخلت بنو بكر عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد النبي على الصلاة والسلام. واستمر الوضع على هذا سبعة عشر شهراً، ثم بدأت بنو بكر تفكر في الاعتداء على خزاعة أخذاً بثأر قديم كان لهم عليها، وكلمت أشراف قريش أن يعينوها بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم بذلك.

نقض العهد:

خرج نفر من قريش متنكرين: "خوف أن يبلغ رسول الله أنهم نقضوا العهد والهدنة"، وأجلسوا معهم أرقاءهم فأغاروا مع بني بكر على خزاعة لبلداهم وهم آمنون وقتلوا منهم ثلاثة وعشرين، وذلك على ماء قريب من مكة يقال له الوتير، وكان عامة القتلى من النساء والصبيان وضعفة الرجال، حتى أدخلوهم الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلمي، وكان يومئذ قائدهم يانوفل: إنا دخلنا الحرم الهك الهك، فقال كلمة عظيمة: "لا إله له اليوم" ثم قال: بابني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ وهكذا فهم لم يرعوا حرمة البيت ولا حرمة من فيه، ولا في القول حتى مع الله سبحانه وتعالى.

وفد خزاعة في المدينة:

وهال الأمر خزاعة فلم يجدوا بداً من الالتجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين رجلاً حتى قدم على رسول الله المدينة، فوقفوا عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه وأنشد أبياتاً تدل على مدى تأثره بما أصاب قومه، وقد جاء فيها:

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم يبنونا بالوتير سجدا ... وقتلونا ركعاً وسجداً

فقال عليه الصلاة والسلام: نصرت يا عمرو بن سالم، لانصرت إن لم انصر بني كعب مما نصرت منه نفسي، ومع ذلك فقد أراد عليه الصلاة والسلام

أن يستوثق من الخبر ويعذر إلى قريش فبعث إليهم رجلاً يخبرهم بين إحدى ثلاث خلال، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة، أو يبرءوا من حلف من تولى كبر هذا النقض أو ينبذ إليهم على سواء فأجابه قرطة بن عمرو أحد زعماء قريش، لكنه ننبذ إليهم على سواء، وبذلك برئت ذمة قريش: وقامت عليهم الحجة.

عندئذ لم يشك أهل مكة في أنهم سوف ينالون جزاء غدرهم فبعثوا بأبي سفيان إلى المدينة علـه يستطيع أن يفعل شيئاً لقريش عن طريق الاعتذار أو تجديد المعاهدة ومدها، لكن الأمر كان أخطر من ذلك بكثير، فماضيهم مملوء بالشر والظم وحاضرهم مملوء بالقتل والطغيان، ولذلك فن يرجي منهم خير في المستقبل فلتطو هذه الصفحة وليفتح الله مكة على المؤمنين ولنفتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام والمسلمين. ولذلك فقد عاد أبو سفيان بخفي حنين.

الاستعداد لفتح مكة:

حين عزم النبي عليه الصلاة والسلام على فتح مكة أرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة وبعث رسلا في كل ناحية حتى قدموا.

في اليوم العاشر من رمضان خرج النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة قاصداً مكة بعد أن استخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وقد انضم إليه في الطريق الكثير من القبائل فبلغ عدد الرجال عشرة آلاف.

هذا القائد العظيم الذي يقود عشرة آلاف جندي وهو ذاهب لفتح مكة يلفت نظره بعد مسيرة يوم من العرج كلبة تهر على أولادها وهن حولها يرضعن،

فيأمر جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها لا يعترض لها أحد من الجيش ولا لأولادها، إنه النبي الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين فتعم رحمته الإنس والجن والحيوان والجماد.

وواصل النبي عليه الصلاة والسلام الصيام حتى وصل بئر الكديد في وضع النهار، فخشي النبي عليه الصلاة والسلام أن يشق العطش والتعب الشديد على جنوده فيعيقهم عن أداء مهمتهم، فدعا بإناء به ماء وأشراف على الناس من فوق ناقته العالية وتشرب جرعة على مشهد من الجند ليريهم أن الأفضل الإفطار في مثل هذه الظروف، ثم بلغه أن قوماً استمروا في صيامهم فقال عليه الصلاة والسلام: أولئك هم العصاة وبين السبب في ذلك فقال: إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم.

لقد أفطر النبي عليه الصلاة والسلام ليكون قدوة للمسلمين في ذلك – ففي وقت الحرب يصبح الإفطار عبادة أكثر من الصيام – فلما بلغه أن بعض المسلمين لم يقتد به وهم مقدمون على معركة، بن لهم لأنهم عصاة بصوم هذا اليوم، لأنهم لن يتمكنوا من أداء واجبهم القتالي وهم صيام.

وحث الرسول على الصلاة والسلام جنده على الإسراع في السير، فوصل إلى مر الظهران على أبواب مكة قبل أن يعرف القرشيون شيئاً عن قوة المسلمين وعن أخبار سيرهم.

دخول مسالم:

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصاً على أن يدخل مكة بغير قتال، ووضع الخطة على هذا الأساس، وأمر أصحابه أن يتفرقوا في مداخل مكة

فلا يدخلوها من مدخل واحد، وبذلك يفوتون فرصة القتال على أهل مكة لو أرادوا ذلك، إذ إنهم مضطرون حينئذ إلى تشتيت جماعاتهم وتشتيت قواهم في جهات مكة فتضعف بذلك المقاومة ومغرياتها، وبذلك تحقن الدماء وتحفظ السلامة والأمن في البلد الحرام، ومن أجل هذا أمر ألا يقاتل المسلمون إلا من قاتلهم، وأعلن أن من أغلق عليه داره فهو آمن، وقد أسند إلى الزبير بن العوام دخول مكة من طريق "كدى" وهو جبل بأسفل مكة وإلى خالد بن الوليد مهمة دخول مكة من أسفلها وإلى أبي عبيدة مهمة دخول مكة من طريق الضواحي الشرقية، وإلى سعد بن عبادة مهمة دخول مكة من طريق كداء وهو جبل بأعلى مكة.

وقد أخذت نشوة الموقف سعد بن عبادة فقال: اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشاً، وحين بلغ ذلك رسلو الله عليه الصلاة والسلام قال: كذب سعد، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم أعز الله قريشاً، وأمر بنزع الراية من سعد وإعطائها لابنه قيس.

ودخل المسلمون من كل جانب ولم يلقوا مقاومة، اللهم إلا خالد بن الوليد الذي استقبله وابل من السهام وقع في جنده فأصاب الكثير منهم – وكان ذلك من عمل صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل الذين دبرا الكمين وراء صخور جبل خندمة، فهجم خالد برجاله على المكان الذي تحصن فيه الأعداء فبث فيهم الرعب وشتت شملهم وقتل منهم اثني عشر – ثم انهزموا فدخل حماس بن قيس على امرأته – وكان حماس قد أعد سلاحاً لقتال المسلمين فقالت له امرأته: والله ما أداه يقوم لمحمد وأصحابه شيء قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، فقال حماس أغلقي على بابي فقالت له: وأين ما كنت تقول؟ فأنشد:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالموتمه ... واستقبتم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعة وجمجمه ... ضربا فلا يسمع إلا غمغمة

لهم نهيت خلقنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدني كلمة

ووصل النبي عله الصلاة والسلام إلى جبل الحجون، فرأى لمعان السيوف والرماح، فغضب وبعث إلى خالد بن الوليد برجل من الأنصار، فلما جاء خالد عنفه على أن قال وقد نهاه عن ذلك نهياً شديداً فأجابه خالد: إنهم يا رسول الله بدءونا بالقتال ورمونا بالبنان ووضعوا فينا السلام، وقد كففت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلتهم وأظفرنا الله عليهم فهربوا من كل وجه فقال عليه الصلاة والسلام: قضى الله أمراً.

إزالة آثار الجاهلية:

وبعد أن هدأ الموقف ودخل المسلمون إلى مكة اعتجر الرسول عليه الصلاة والسلام عمامة سوداء ووشاحاً مخططاً على رأسه، وترك طرفاه ترفل بين كتفيه ثم يمم شطر الكعبة للطواف مبتدئاً بالحجر الأسود، ثم نزل عند راحلة ليغشي البيت، ولكنه تراجع إذ أبصر بالأصنام التي تحيط بالكعبة، وصاح أمام لوحة تصور إبراهيم عليه السلام ممسكاً بالإزلام: "قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالإزلام، والله استقسم بها قط"، وأمر بالصور فمحيت.

واتجه إلى الأصنام المحيطة بالحرم، وكان عددها ثلاثمائة وستين فبدأ بالصنم الأكبر هبل وجعل يصرب في عينيه قائلاً: جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقاً فخر الصنم لوجهه مهشماً وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف بالأصنام فيهشمها واحداً واحداً حتى لم يبق إلا صنم بني خزاعة المصنوع من نحاس وصدف وكان منصوباً على سطح الحرم، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لعلي: اجلس فجلس على فصعد رسول الله على منكبيه، ثم قال له انهض فأحسن على بحمل فوق طاقة البشر فلم يستطع، فنزل ورفع النبي عليه الصلاة والسلام عليا قال علي: فلما نهض بي وصعدت فوق ظهر الكعبة خيل إلى حين نهض بي "صعد"، إني لو شئت لنلت فوق السماء، وكان الصنم مؤيداً بأوتاد من حديد وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: إيه إيه جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، فتمكنت من الصنم فقذفته فتكسر، ثم بعث رسول اللهﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره وبعث رجلاً من أصحابه إلى القبائل فهدموا أصنامها.

يالله لقد كانت هذه الحجارة منذ هنيهه آلهة مقدسة ولكنها الآن أنقاض بعد أن هدمها نبي التوحيد، الذي دار في البثيت وكبر في نواحيه ووحد الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا يصنع بهم؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصرعبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

خطبة النبي عليه الصلاة والسلام:

توجه أهل مكة في اليوم التالي إلى الصفا، حيث دعاهم النبي عليه الصلاة والسلام، ليأخد عليهم العهد والمياق، ومما يلفت النظر أن أهل مكة لم تكن تبدو عليهم أمارات الخزي التي تبدو عادة على المنهزمين، فقد اطمأنوا إلى النبي

عليه الصلاة والسلام الذي وصفه رب العزة بأنه رؤوف رحيم، واستمعوا إلى خطبته التي قال فيها: "الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وحزم الأحزاب وحده، ألا وإن كل ثأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتل الخطء شبه العمد السوط والعصا فيه الديه مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطون أمهاتها ثم قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بآبائها، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }" الحجرات:١٣"، ألا وإن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرام الله لم يحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد كان بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ألا لا ينفر صيدها ولا يعضد "يقطع" عضاها "شجر له شوك"، ولا تحل لقيطتها إلا لمنشد ولا يختلي خلالها "يقطع حشيشها"، فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد منه للقبور وظهور البيوت، فسكت ساعة ثم قال: إلا الإذخر فإنه حلال.

ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر. ولا يحل لامرأة تعطي من مال زوجها إلا بإذن زوحها، والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة، والمسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ويرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم، ولا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح امرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذي رحم محرم.

ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم، قالوا خيرا.. أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لاخوته: لا تثريب عليهكم اليوم

اذهبوا فأنتم الطلقاء، ثم قال: أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال: هذا مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء وجاء الظهر:

فأمر بأن يصعد فوق الكعبة فيؤذن، وكانت قريش فوق رؤوس الجبال وقد تغيرت وجوههم وتعبوا وتغيبوا خوف أن يقتلوا، فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون وقال: أشهد أن محمداً رسول الله قالت جويرة بنت أبي جهل: قد لعمري لقد رفع لك ذكرك أما الصلاة فسنصلي، والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً، وقال خالد بن الأسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ليتني مت قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلال ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم أن يصبح عبد بني جمح على بنية أبي طلحة. وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره، وإن كان الله فيه رضا فسيقره، وقال أبو سفيان بن حرب أما أنا فلا أقول شيئاً لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء، فأتى جبريل عليه السلام فأخبره خبرهم.

ثم دخل دار أم هانئ فاغتسل وصلى صلاة الفتح ثماني ركعات، وكان أمراء المسلمين من بعده يقتدون به في ذلك فإذا فتحوا بلداً صلوا هذه الصلاة – ثم لبس السلاح ومغفراً من حديد ثم ركب القصواء ومر وأبو بكر معه على الناس وعبدالله بن أم مكتوب بين يديه يقول:

يا حبذا مكة من وادي ... أرض بها أهلي وعوادي

أرض بها أنسى بلا هادي ... أرض بها ترسخ أوتادي

حتى انتهى إلى الكبعة فتقدم على راحلته فاستلم الركن وكبر فكبر المسلمون لتكبيره وحتى ارتجت مكة، فأشار إليهم أن اسكتوا والمشركون فوق الجبل ينظرون ثم طاف ومحمد ابن مسلم أخذ بزمامها.

ثم اجتمعت قريش لمبايعته فجلس على الصفا وجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه يأخذ على الناس فيبايعون على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، ثم قال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية.

غسل الكعبة:

ثم تجرد رجل من الأزد ثم أخذوا الدلو فغسلوا الكعبة وبطنها حتى انبعج الوادي بالماء فلم يدعوا فيه صورة ولا أثراً من آثار المشركين إلا محوه وكان عليه الصلاة والسلام لما جلس ناحية من المسجد توضأ بسجل من زمزم قريباً من المقام، والمسلمون يبادرون وضوءه يضعونه على وجوههم، والمشركون يومئذ متعجبون ويقولون: ما رأينا ملكاً قط يبلغ هذا ولا شبيهاً به.

أثر فتح مكة:

كان لفتح مكة أثراً عميق في نفوس العرب فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام، وصاروا يدخلون فيه أفواجاً، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف، وكانت ممتنعة عن الدخول في الإسلام لمكانة هذا الحلف، وكانت قبائل ترهب قريشاً وتجلها، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه وزال الحاجز وكانت قبائل تعتبر مكة ولا يفتحها أحد، ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد لها سواء إلا أهلك، ولايزال فيها من عاصر حادثه الفيل وشاهد ما فعل بأبرهة فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما فتح الله مكة لنبيه، خضعت قريش للإسلام طوعاً أو كرهاً وأقبل العربي على الإسلام إقبالا لم يعرف قبل ذلك، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً وصدق الله العظيم القائل: {إذا جاء نصر الله والفتح} سورة النصر.

الأنصار يخافون:

ظن الأنصار الذين آووا الرسول عليه السلاة ونصروه إن مهمتهم قد انتهت وقالوا: فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام وهي بلده وموطنه جال ذلك في نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ثم قالوا: أترون رسول اللهﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم فيها؟ فلما تم فتح مكة قال لهم رسول اللهﷺ معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم "وفي مكان آخر يقول: لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ولو سلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار".

لقد أقام النبي عليه الصلاة والسلام نحو التسعة أو عشرة يوماً في مكة، ومع ذلك فقد اعتبر نفسه غريباً مسافراً وكان يقصر من الصلاة، وكان يقول بعد تمام الركعتين:" يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا سفر".

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام على مكة قبل أن يغادرها عاب بن أسيد يدبر أمورها، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين وسنه عشرون سنة بمحضر من أهل الأسنان والفضل، فدل ذلك على أن المناصب تقوم على الجدارة والقوة، لا على العلم أو السن أو الجاه أو المال، ولم ينكر أحد من الصحابة هذا العمل.

خاتمة:

بالأمس خرج النبي على الصلاة والسلام من موطنه، وأحب بلاد الله إليه من مكة مستخفياً في بطون الجبال والوديان مهاجراً إلى يثرب وقد سبقه إلى

الهجرة إليها، ولحق به أصحابه وهم قلة مستضعفة، خرجوا متسللين بدينهم تاركين المال والأهل والوطن، نعم كان ذلك بالأمس.

أما اليوم فهاهم أولاء يعودون إلى وطنهم وأهلهم ومالهم وقد كثروا من قلة وتقووا بعد ضعف واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين خائفين.

وبلال العبد الحبشي الذي طالما عذب في رمضاء مكة على أيدي المشركين، يصعد اليوم على الكعبة المشرفة ينادي بأعلى صوته: الله أكبر، الله أكبر.

نعم بالأمس كان يهمس وهو تحت أسواط العذاب أحد أحد، واليوم يجلجل فوق بيت الله الحرام: لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع ومنصت.

وبعد انتصار المسلمين وفتح مكة ألقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه خطبة، تري ما الذي يشغل بال هذا الفاتح العظيم وما الذي يقوله في هذه الخطبة، نعم إنه الفاتح العظيم ولكنه أيضاً رسول الله صاحب الرسالة ولا يشغل باله شيء إلا أداء هذه الرسالة، وحتى وقت الفتح الأكبر لم يشعر بشيء من الزهو والغرور، بل إنه هو محمد رسول الله، يلقي خطبة يضمع فيها الأسس الإسلامية في العقيدة والتشريع والأخلاق التي يحتاج إليها الناس في جميع العصور وفي جميع البلاد، ولم يحدث في التاريخ البشري أن خطب فاتح مثل هذه الخطبة التي تخلو من التعاظم التي تضع أسس المجتمع السليم، ولكنه

محمد رسول الله الذي أرسله الله تعالى لإنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور.

إن محمداً صلوات الله عليه دخل مكة دخول الرسول الذي يريد أن يفتح القلوب لنور الإيمان، فهو ليس ملكاً يبغي شهرة، ولا طاغية يبغي سيطرة، لقد أرسله الله رحمة للعالمين ومن هنا فلم يكن في مشاعره إلا المودة ولم يكن في ألفاظه إلا الرقة.

دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام مكة دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال، دخل خافضاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه لتكاد تمس واسطة الرحل، دخل مكة وهو يقرأ سورة الفتح، وفي دخوله مكة فاتحاً، وهي قلب الجزيرة العربية ومركزها الروحي والسياسي رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع.

ومما يلفت النظر أن يردف خلفه أسامة بن زيد وهو ابن مولاه، ولم يردف أحداً من أبناء هاشم أو أشراف قريش.

إنها العبودية المطلقة لله تعالى في السراء والضراء.

وما أشد حاجتنا في بداية القرن الخامس عشر إلى أن ندرس هذه الغزوة دراسة واعية لنأخذ عنها الدروس التي تفيدنا في مستقبلنا نحو الدعوة إلى الله تعالى، لننقذ أنفسنا مما نحن فيه وننقذ هذا العالم المضطرب الحائر.

موقعة القادسية

رمضان سنة ١٥ هـ

من المعارك الإسلامية ما يضع بصماته على سطح الكرة الأرضية، فتبقى آثارها على مدى التاريخ ومعركة القادسية من المعارك الرمضانية الفاصلة في التاريخ فهي التي كانت سبباً في فتح أبواب العراق وفارس أمام المسلمين ثم تبعها السقوط الساساني من الناحيتين السياسية والحربية والسقوط المجوسي من الناحية الدينية، ومن هنا انساح الدين الإسلامي في العالم شرقاً وغرباً.

وقد تميز الفرس بكثرة العدد وأفضليات السلاح ونوعيته إلى جانب سلاح الفيلة الرهيب الذي لم يكن لدى المسلمين شيء منه، وإلى جانب درجة الكفاية البالغة في الحرب والقتال قرب ديارهم.

لقد كان هدف المسلمين في هذه المعركة تحيط الجيش الضخم لإمبراطورية الفرس، فإذا تم ذلك دانت الدولة وانفتحت البلاد أمام المسلمين.

قائد المعركة:

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يريد أن يقود المعركة، ولكن الصحابة رأوا أن يبعث غيره فذلك لمصلحة المسلمين فاختار سعد بن أبي وقاص، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله في مغازية، وإن رسول الله يعتز به ويقول فيه "هذا خالي فليرني أمرؤ خاله"، وفي غزوة بدر قال له: ارم أيها الفتى فداك أبي وأمي.

ثم أرسل عمر إلى سعد فقدم عليه فأمره على حرب العراق وأوصاه قائلاً: "يا سعد لا يغرنك أن قيل أنك خال رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب ولا صلة إلا طاعته".

وقال لسعد: إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص فيه إلا الحق فعود نفسك ومن معك على الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عدة عتادا فعتاد الخبر الصبر فالصبر الصبر على ما أصابك، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته وفي اجتناب معصيته وإنما إطاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصاه من عصاه يحب الدنيا وبغض الآخرة، وقال لمن معه: إن الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فانهوا شكواكم إلينا، فمن لم يستطع يأتي إلينا من يبلغناها فآخذ الحق له غير منقوص، ثم أمر سعد بالسير، وقال له: "إذا انتهيت إلى زرود فانزلوا بها وتفرقوا فيها وحولها واندب من حولك منهم وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة".

خرج سعد من المدينة قاصداً العراق في أربعة آلاف ثم جاءت إليه إمدادات أخرى ألفا يمني وألفا نجدي، وجميع من شهد القادسية من المسلمين كانوا بضعة وثلاثين ألفا، منهم بضعة وسبعون ممن شهدوا بدرا وثلثمائة ممن شهدوا فتح مكة، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب، وكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراحة بالاسم يأمره بإرسال جنود من العراق فأرسل إليه ستة آلاف، ومن أراد أن يلحق بهم – وسار سعد بالجيش عن طريق مدينة الحيرة مجتازاً أرض نجد حتى نزل على زرود على مسافة ٥٨٥ كيلو مترا من المدينة – ثم أمده عمر بن الخطاب بأربعة آلاف أخرى.

وكان المثنى بن حارثة في شراف ينتظر قدوم سعد وكان معه ٢١ ألف، ولكن المنية وافته قبل أن يلتقي بسعد وكتب عمر إلى سعد أما بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى العدة في الحرب، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله لنا، ولكم وتلقى سعد وصية كتبها المثنى تتضمن خلاصة تجارية في حرب العراق قال فيها: "لا يقاتل عدوه وعدو المسلمين من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وتلقوهم في عقر دارهم – وإنما يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءه وإن تكن الأخرى رجعوا.

نزول حملة القادسية:

أخرج سعيد المقدمة مع زهرة بن الجدية من أشراف حتى نزل عذيب الهجانات، ثم ارتحل ونزل زهرة القادسية وسكل سرية وبعثها في جوف الليل لتنشر الغارات على الأعداء، واستولى على بعض الأموال ثم عاد بعد ذلك حتى إذا طلعوا على سعد بعذيب كبروا تكبيرة شديدة فقال لهم سعد أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزة وقسم سعد تلك الغنيمة، وأعطى المجاهدين أربعة أخماس والباقي على المحتاجين والفقراء وأنزل سعد نساء المسلمين بالعذيب، ووسع معها أخيل تراها وتحميها وأمر عليهم غالب الليثي ثم ارتحل سعد حتى نزل القادسية فنزل "بقديس" حصن القادسية ونزل زهرة بالمقدمة.

وجاء إلى سعد كتاب من عمر يقول فيه: "أما بعد فلتجاهد قلبك لتجاهد جندك بالموعظة الحسنة والنية الحسنة والصبر فإن المعركة تأتي على قدر النية والأجر على قدر الحسبة، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله

واسألوا الله العافية وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، واكتب لي واجعلني من أمركم على جلوة وخف الله وارجه".

فكتب سعد إليه يقول: إن القادسية بين الخندق والعتيق ووصف له الموقع. وكان سعد يبعث بالسرايا لاستنزاف قوة الفرس وقد أثرت حرب الاستنزاف تأثيراً مادياً ونفسياً على المواطنين فطلبوا من يزدجر أن ينقذهم فأرسل إليهم رستم.

رستم:

كان رستم أميراً على خراسان ثم عين قائداً لمعركة القادسية وقال يزدجر: أنت رجل أهل فارس اليوم، وقد نرى ما جاء أهل فارس من أمركم بأنه هم مثله فقال رستم: إن الأناة في الحرب خير من العجلة.

خطة القادسية:

قامت خطة القادسية على أساس اختيار محدد على الحدود الطبيعية من الصحراء وبين الشبكة المعقدة للمسالك والمسطحات المائية، تجنباً للتورط في القتال على أرض هذه المواقع وحفظ خط الرجعة لجيش المسلمين إذا ما كانت نتيجة المعركة على غير ما يرجون، وأن تكون المعركة التي تدور على هذه الأرض بعد استدراج الفرس إليها كبيرة وحاسمة تقضي على قوتهم المادية والمعنوية.

وقد أقام سعد بالقادسية زمناً ينتظر المجوس أن يوجهوا إليه قواتهم وهم لا يفعلون فبعث عيونه إلى أهل الحيرة وغيرا فرجعت إليه العيون بأن يزدجر قد ولي رستم الأرمني قيادة حرب المسلمين، وأنه أمره أن يعسكر بجنوده وأخذ سعد

يبعث بالسرايا فشنت الغارات، وذلك للإغاثة والتموين لجيش المسلمين في الميدان وشن حرب الاستنزاف على الفرس حتى يخرجوا لماقاته، وكثرت الشكاوى إلى يزدجر فأرسل يزدجر إلى رستم أن يأتي إليه فجاء ودخل عليه، وتناقشا في أمر الحرب وقد أراد رستم أن يعفيه من قيادة الجيش فلم يوافق رستم على ذلك.

ثم أرسل سعد أربعة عشر رجلاً إلى يزدجر الثالث آخر ملوك بني ساسان، وأمر عليهم النعمان بن مقرن واجتمع يزدجر ببطانته يستشيرهم، ثم استقبل الوفد وسأل الترجمان رئيس الوفد: ما تسمي رداءك؟

قال: البد فتير وتشاءم.

ثم قال له: ما تسمون هذه الأحذية؟

قال: النعال.

ثم سأله عن الذي في يده: فقال: سوط والسوط بالفارسية معناه الحريق.

فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله.

ثم سأل الترجمان: ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا؟ قال النعمان أن الله تعالى رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ويدلنا على الشر وينهانا عنه، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة، ونحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فالمناجزة، ودارات مناقشات قال على أثرها يزدجر: "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم أمر بطردهم بعد تهديدهم بغزو بلادهم ورميهم بالتراب، وخرج الوفد

حتى أتى سعد بالقادسية وأخبروه بالخير فقال سعد أبشروا فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم".

وتكلم يزدجر فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بينهم منك، كأن الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى حصتكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم فقام المغيرة بن زرارة وقال:

أما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا فبعث الله رجلاً معروفاً فدعانا إلى عبادة الله وحدة لا شريك له وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه ما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه، فاختر إن شئت الجزية وإن شئت فالسيف أو تسلم وتنجي نفسك، قال يزدجر: أتستقبلني بمثل هذا؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي اعلموا صاحبكم أني مرسل إليكم رستم حتى يقاتلكم وأرسل سعد سريا جاء بالغنائم المتعددة، وجاء رستم بـ١٢ ألف مقاتل نصفهم من الفرسان ونصفهم من المشاة غير الأتباع والرقيق ونزل بالقادسية فإذا بجنود الفرس يشربون الخمر ويقتسمون النساء وضج الأهالي وهم مجوس وشكو إلى رستم فأمر بمنع ذلك.

ثم ذهب رستم مع قواته فوقف بهم أمام عسكر سعد من وراء العقيق العتيق، وأصبح جيش رستم وجيش سعد وجهاً لوجه وجعل رستم يلح بالصلح على زهرة، أحد قواد سعد، فقال له: أنا لم أتكم لطلب الدنيا وإنما طلبنا وهمتنا الآخرة، والإسلام دين الحق وعموده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى والناس كلهم سواء لأنهم

من آدم وحواء. قال رستم: ما أحسن هذا أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟

قال: أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا تجارة أو حاجة.

قال: صدقت والله.

ثم انصرف رستم وتدارس مع حاشيته ولكنهم رفشوا، فطلب رستم رجلاً يكلمه فأرسل إليه ربعي بن عامر، فقال الحراس لربعي ضع سلاحك.

قال: إني لم أتكم فأضع سلاحي بأمركم، ولكن أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن أتكم إلا كما أريد وألا رجعت فأخبروا رستم فقال ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد؟

وأقبل ربعي يتوكأ على رمحه ثم جلس على الأرض فقال له رستم: ما حملك على هذا؟

قال ربيع: أنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه قال رستم: ما جاء بكم؟

قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قال رستم: قد سمعنا مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه.

قال: نعم كم أحب إليكم يوماً أو يومين؟

قال رستم: لا حتى نكاتب أهل رأينا من رؤساء قومنا.

قال ربعي: إن مما سن لنا رسول الله وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من إيذائنا ولا نمهلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن نترككم فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل اختر الإسلام فندعك وشأنك أو الجزية، فنرجع ونكف عنك وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك وإن كنت إليه محتاجاً للقتال أو الحرب في اليوم الرابع ولن نبدأك في اليوم الرابع إلا أن تبدأنا وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي.

قال رستم: أسيدهم أنت؟

قال: لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

وانفرد رستم برؤساء أهل فارس.

وقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً أوضح من كلام هذا الرجل؟

قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا النوع وتدع دينك لهذا الكلب أما تري ثيابه؟

قال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسير، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب وليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون ما ترون، فأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ويزهون به.

فقال لهم: هل لكم إلى أن تروني مأربكم فأخرج سبعة من خرقة كأنه شعلة نار.

فقالا له إغمده فغمده.

فقال لهم: يا أهل فارس أنكم عظمتم الطعام والشراب واللباس وأنا صغرناهم، ثم تركهم ورجع إلى معسكره إلى أن ينظروا إلى الأجل الذي منحه لهم وهو ثلاثة أيام وفي الغد يطلبوا من سعد إرسال ربعي فأرسل إليهم حذيفة بن محصن الذي أقبل على رستم في زي يشبه زي ربعي، حتى إذا كان على أدنى البساط.

قالوا له: انزل.

قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي فقولوا لمليككم أله حاجة أم لي؟ فإن قال في فقد كذب ورجعت وتركتكم وإن قال له: لم آتم إلا على ما أحب.

فقال رستم: دعوه فدخل حذيفة بفرسه حتى بلغ رستم وهو على سريره.

فقال له رستم: انزل.

قال: لا أفعل.

قال: ما جاء بكم؟

قال: إن الله عز وجل من علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين، ثم دعانا إلى عبادة الله ثم امرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث فأيها أجابوا إلينا قبلناه: الإسلام وننصرف عنكم أو الجزية ونمنعكم إذا احتجتم إلى ذلك أو المنابذة.

قال رستم المواءمة إلى يوم قال حذيفة نعم وثلاثة من أمس.

وفي اليوم التالي طلبوا من سعد أن يبعث إليهم رجلاً آخر فبعث إليهم المغيرة بن شعبة، فقال لهم مثل ما قال حذيفة فاستشاط رستم غضباً وقال: ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع منكم هذا. وحلف بالشمس لا يأتي لكن صبح الغد حتى أفرغ منكم وأقتلكم جميعاً لا صلح بيننا وبينكم.

وحدثت معارضات ولكنها لم تؤد إلى نتيجة.

ثم قال رستم: أتغيرون علينا أم نغير عليكم؟

قالوا: بل أغيروا علينا وأرسل سعد إلى واحدات المسلمين أن يقفوا مواقفهم وأرسل إلى رستم يسمح له بالعبور.

ويقول له: شأنكم والعبور وأرسل سعد إلى الفرس رداً على آرادتهم عبور القنطرة.

يقول: لا وكرامة أما شيء غلبناكم عليه فلن ندره لكم فتكلفوا معبراً غير القناطر – فبات المجوس يردمون العتيق بالذرع والتراب وبالبوص والغاب وعملوا طوال الليل حتى الصباح فجعلوه طريقاً واسعاً منبسطاً ثم شرع جنود رستم يردمون العتيق بأثقالهم، فكلما عبرت فرقة أخذت موقعها وصفوفها ثم قال رستم غداً ندقهم فقال له رجل: إن شاء الله.

قال: وإن لم يشأ.

ثم جلس رستم على سرير أعد له يباشر أشرافه على جيشه – وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلاً جعل في القلب ثمانية عشر فيلاً وفي الميمنة ثمانية أفيال، وفي الميسرة سبعة وعليه الصناديق فيها الرجال.

وكان هرمزان على ميمنة رستم ومهران على ميسرته وأخذ المسلمون مصافهم فأدخل سعد المقدمة وعليها زهرة اليمني والمؤخرة وعليها عاصم التيمي ونادى منادي سعد في جيشه: ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر لله، أيها الناس تحاسدوا وتغايروا على الجهاد.

وقد أصاب سعد في هذه الفترة عدة أمراض فاعتلى القصر، وأكب من فوقه على وسادة في صدره يرمي إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر، وقال سعد لمن معه: احملوني وأشرفوا بي على الناس. وخطب فيهم قائلاً: قال الله تعالى: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } "الأنبياء :١٠٥".

فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة.

ورجع كل أمير إلى جنده في موقعه من أصحابه، وخطب كل واحد منهم في جماعته وعبر المجوس نهر العتيق وعبر رستم معهم، وسمع أذان المسلمين الصلاة، ونادى في المجوس أن يركبوا.

وقال سعد لرجاله: انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم ذكرهم، وحرضوهم على القتال فساروا مع المسلمين بما كلفوا به.

آخر الطريق:

أرسل سعد أمراً إلى جيشه: الزموا مواقعكم لا تحركموا شيئاً حتى نصلي الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما اعطيتموه تأييداً الكم فإذا كبرت الثانية فكبروا وتهيؤوا ومعكم عدتكم فإذا كبرتا الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم فإذا كبرت

الرابعة فشدوا النواجز على الأضراس جميعاً حتى تخالفوا عدوكم، وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان عمر قد ألزم سعد إغلاماً من القراء، فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلام من القراء، فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلاء آن يقرأ سورة الجهاد – الأنفال – فقرأ على أقرب الكتائب إليه فعرفت كل كتيبة فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها وبدأت المبارزة والقتال والرمي بالسهام.

الزحف:

قام طليحة بن خويلد في قومه من بني أسد وقال: شدوا عليهم واعلوهم باسم الله فشدوا عليهم، وكانوا يتسابقون إلى البطولة والفداء وكبر سعد التكبيرة الرابعة فزحف جميع المسلمين ونشطت أفيال المجوس – فأرسل سعد إلى عاصم بن عمر من يقول: ونشطت أفيال المجوس – فأرسل سعد إلى عاصم بن عمر من يقول: يا معشر بني تميم الستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حل؟

قالوا: بلى والله.

ثم جمع الرماة من بني تميم ووضع خطته على أساس مشاغلة الفيلة ثم مهاجمتهم في غفلة وكان النصر للمسلمين.

ليلة الهدأة:

لقد أمطر رماة تميم الذين كلفهم عاصم برمي الأفيال بوابل من سهامهم والتحموا معهم في معركة تراشق ولم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة.

وفي مضارب نساء المسلمين بالقديس، جست الخنساء بنت عمرو شاعرة بني سليم المخضرمة ومعها بنوها الأربعة وأخذت تحرضهم على القتال وقالت

لهم: إنكم أسلمتهم طائعين وجاهدتم وجاهدتم مختارين وأنتم تعلمون ما وعد الله: إنكم أسلمتم طائعين وجاهدتم مختارين وأنتم تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية والله تعالي يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } "آل عمران: ٢٠٠".

فإن أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستنصرين بالله على أعدائه، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساعدها فقوموا وسطاً وجالدوا، واظفروا بالعزة والكرامة في دار الخلد.

فخرج بنوها وأخذوا مواقعهم وقاتلوا واستشهدوا في سبيل الله، وحين سمعت الخنساء بذلك قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجوا الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

يوم أغواث:

يوم أعواث هو اليوم الثاني من أيام معركة القادسية – وهو اليوم الذي بلغ الغوث فيه للمسلمين بوصول القعقاع وطلائع جيش خالد واشتراكهم في المعركة، فقد أصبح الصباح والجيشان على التعبئة.

وقد وكل سعد رجالاً ينقلون الجرحى إلى مضارب المسلمين بالعذيب، حيث النساء يمرضنهم ووكل رجالاً ينقلون الشهداء إلى مشرق حيث يدفنون هناك، وكان النساء يحفرون القبور لدفن الشهداء وكان المسئولون الجرحى والهشداء حاطب بن زيد الأنصاري من الأوس، وكان ممن شهدوا أحداً.

وقد أسرع القعقاع بن عمرو بالمقدمة وقسم أصحابه إلى عشرات، وتقدم القعقاع ثم نادى من يبارز؟ فخرج إليه بهيمين جازورية فصاح بالتارات أصحاب يوم الجسر ثم تبارزا فقتله القعقاع وكثر المبارزات التي انتصر المسلمون فيها جميعاً وحمل القعقاع حملة على طريقه الكر والفر قتل فيها ثلاثين فارساً.

ليلة السواد:

استمرت المبارزة بين الفرسان حتى منتصف الليل فسميت ليلة السواد، وشدد المسلمون ضغطهم على أعدائهم.

أبو محجن الثقفي:

كان أبو محجن الثقفي في الحبس لأنه كان يشرب الخمر، فلما سمع صليل السيوف وأصواتها في المعركة، طلب من امرأة سعد أن تخلي عنه وأن تعيره البلقاء – فرس سعد – فإن سلمه الله رجع إليها حتى يضع رجليه في القيد فأطلقت سلمى سراحه، فأخذ يبجاوز الأعداء ولا يحمل على رجل إلا قتله والناس يتعجبون، وظل يحمل على العجم فلا يقف بين يديه أحد إلا قتله، فرآه سعد فقال: الضرب ضرب البلقاء والطعن طعن أبي محجن ولولا أنه في الحبس لقلت: إنه هو.

وقال بعضهم لولا أن الملائكة لا تباشر القتل لقلنا أنه ملك.

ولما انتهت المعركة أسر أبو محجن فوضع نفسه في القيد وأعاد الفرس إلى مكانه، ولما جاء سعد وعرف ما حدث قال والله لا أضعه في الحبس من أجل شرب الخمر فقال أبو محجن: لقد تبث إلى الله فقد كنت أشربها خشية أن يقال: إني أخاف العقاب فأنا الآن اتركها رغبة في رضاء الله تعالى.

عماس:

جمع المسلمون شهداءهم وجرحاهم الذين أصيبوا يوم أغواث فكانوا ألفين، وبلغ عدد القتلى من المجوس عشرة آلاف.

ثم أخذ المسلمون مواقعه في وقت مبكر قبل طلوع الشمس وجاءهم المدد الكثير وعادت الفيلة إلى الظهور وخرج رجل من ميسرة المجوس، وقال: من يبارزني؟

فلم يجبه أحد فخرج شبرمة بن علقمة فبارزه وذبحه وسلبه، ثم أتى به إلى سعد فأعطاه سلبه لقد اشتركت الفيلة في المعركة ولكن المسلمين انتصروا على الفرس بفضل الله تعالى وإخلاص المقاتلين من المسلمين.

ليلة الهدير:

كان المسلمون على تعبئتهم في ثلاثة صفوف، الأول للرماة، والثاني للخيول، والثالث للمشاة من حملة الرماح، وقد تراشق الفريقان بالسهام، ثم هجم المسلمون على العدو بعد تكبيرة سعد بعد العشاء فاستقبله الليل، وقامت الحرب على قدم وساق حتى الصباح وانتصر المسلمون وصاح القعقاع بن عمرو في أواخر الليل:

نحن قتلنا معشرا وزائدا ... أربعة وخمسة وواحدا

تحسبها فوق اليد الأساورا ... حتى إذا ماتوا دعونا جاهرا

اللهم ربي واحترز تعامدا

أمثلة إيمانية:

لقد كان المسلمون وأعداؤهم وهم متعبون لم يغمض لهم جفن طوال اليل، وكان القعقاع يقود المسلمين ويشد أزرهم ويقول لهم: إن الهزيمة بعد ساعة لمن بدا اليوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر، واجتمع جماعة جلعوا هدفهم رستم ورأى القبائل ذلك فقام فيها رجال وحملوا على الأعداء واستمر الاحتدام ثلاثين ساعة، وكان الإيمان هو سلاح المؤمنين وشهد عبدالله بن أم مكتوم الأعمي يوم القادسية وعليه درع يجر أطرافها وبيده رزية سوداء وقال إني أكثر المسلمين بنفسي.

ومر المسلمون على رجل يوم القادسة وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يقول:

"أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً".

فقال له رجل: من أنت؟ يا عبدالله – قال: رجل من الأنصار قال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبدالله بن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجر أطرافه وبيده رأيه سوداء فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟

قال: بل ولكني أكثر المسلمين فكيف بجهادي في سبيل الله؟

وقتل هلال التميمي رستم، ونادى: قتلت رستم ورب الكعبة، وركب الرعب المقرنين في الأصفاد فتهافتوا في النهر العتيق وأدركهم المسلمون فوخزوهم بالرماح، فما أفلت أحد منهم وكانوا ثلاثين ألفا.

وجاء نفر من النسا حتى دخلن على سعد فقلن: أيها الأمير رأينا جسد رستم على باب خضرة وعليه رأس غيره، كأن الضرب قد شوهد فضحك سعد ثم تابع المسلمون الفرس.

وأرسل سعد رسالة إلى أمير المؤمنين يخبره بالنصر فقرأ عمر رسالة سعد إلى المسلمين بعد المعركة، وقد قسم الغنائم على المجاهدين فكان نصيب الراجل ألفين، ونصيب الفارس ستة آلاف، وقد أمر عمر بن الخطاب سعدا أن يفضل أهل البلاد عند العطاء فزادهم سعد خمسمائة لكل منهم.

وقد زال تماماً ما كان لدى الفرس من غرور وغطرسة – وقد أصابهم الانهيار وركبهم الذل والهوان – وقد تم تطهير ميدان المعركة الذي كان فيه أكثر من ٢٧٦ ألف من الطرفين، فلم يعد فيه إلا نحو ثلاثين ألفا من المسلمين المنتصرين بخلاف أعداء من أسرى الفرس وقتلاهم الذين ملؤوا الميدان.

من سعد إلى عمر:

أرسل سعد رسالة إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين قال فيها: إن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتلا طويل وزلزال شديد، وقد التقوا بالمسلمين بعدة لم ير الراؤون مثلها، ولكن الله تعالى لم يجعل لها فائدة.

وهكذا نرى أن معركة القادسية من المعارك الرمضانية الفاصلة في تاريخ الإسلام، وكانت سبباً في فتح الأبواب أمام الدعوة إلى الله تعالى، ودخول الناس في الإسام أفراداً وجماعات، وبذلك انتصر الإسلام في جميع أنحاء العالم شرقاً وغرباً.

وعلى آثارها انفتح أبواب العراق ومن وراء العراق فارس كلها ومن عندها استطرد نصر الله تعالي للمسلمين، فاستطرد بعدها السقوط الساساني والمجوسي – ومن هنا نرى أن المسلمين قد كسروا شوكة المجود كسرة لم تقم بعدها أبداً.

نعم لقد ألقى الفرس بكل طاقاتهم وسلاحهم في أعداد ضخمة من الجند وقيادات تمثلت في أحكم رجالهم ومع ذلك فقد انهزموا في الحرب كلها، كما أن المسلمين قد ألقوا أيضاً بكل جنودهم وبقيادة تمثلت في صحابي رسول الله، وواحد من السابقين الأوائل في الإسلام وأحد الستة الذين رشحوا للخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب "سعد بن أبي وقاص"، كما أنهم نزلوا إلى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم بسلاحهم الذين انتصروا به على عدوهم وهو الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى، وبأخذهم بالأسباب كلها ثم بالتوكل على الخالق سبحانه وتعالى.

بهذا: استحقت معركة القادسية مكانتها على قمة المعارك الرمضانية الفاصلة في تاريخ الإسلام.

فتح الأندلس رمضان ٩٢هـ

الأندلس قبل الفتح:

الأندلس هي التي تسمى في العصر الحديث إسبانيا والبرتغال، وتقع في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية. وقد ظلت إسبانيا والبرتغال تحت حكم الرومان إلى أن أغارت عليها قبائل الولدان في القرن الخامس الميلادي.

وفي أوائل القرن السادس الميلادي أغار على إسبانيا قبائل القوط الصغريين وطردوا الولدان وكونوا لهم دولة قوية في إسبانيا، ولكن الترف جعلهم ينصرفون إلى اللهو وتركوا الزراعة والصناعة وغيرها.

وقد اتبع رجال الدين المسيحي أسلوب الترف بعد أن كسبوا نفوذاً قوياً في شئون الدولة، وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع للمعاونة على انتهاب الملك واضطهدوا اليهوم كما يقول سير توماس ارنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، وقد لقيت الطبقة الوسطي والطبقة الدنيا ألواناً من العنف والاضطهاد والأكثار من الضرائب، وقيل إن الوباء تفشى من سنة ٨٨ هـ إلى سنة ٩٠ هـ في إسبانيا حتى مات أكثر من نصف سكانها.

ولذلك تمنى اليهود والعبيد الخلاص من نير الحكم القوطي الجائر وكان لذريق آخر ملوكم الدولة القوطية في إسبانيا، وقد غرق في الشهوات حتى نفرت منه القلوب.

الفتح الإسلامي:

طلب جوليان – حاكم سبتة – الذي حدث شقاق بينه وبين لذريق ملك أسبانيا من موسي بن نصير أن يأتي إلى إسبانيا فوافق على ذلك بعد أخذ الحيطة، وأرسل طريف بين مالك الغافقي، وكان من البربر وإليه الذي تنسب جزيرة طريف حتى الآن على رأس خمسمائة مقاتل منهم أربعمائة راجل ومائة فارس جاز بيهم البحر في أربع سفن وغزا بعض ثغور إسبانيا الجنوبية وعاد محملاً بالغنائم.

وقد شجع نجاح طريف في هذ الغزوة موسي بن نصير على فتح إسبانيا فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجة الذي كان يتمتع بصدق العزيمة وشدة البأس وصلابة العود إلى حانب ما امتاز به من حسن الكلام وقوة البيان والقدرة على التأثير في قلوب سامعية، وما اشتهر عنه من الإخلاص في الجهاد في سبيل الله.

وفي شعبان من عام ٩٢ هـ "٧١١م" عبر طارق البحر في أربع سفن وسار على رأس سبعة آلاف من المسلمين وأخذ طارق – وهو على سفينته – يتأمل عجائب الكون، وينظر إلى السماء متوجها إلى الله بقلبه يلتمس منه العون ويذكر الرسول الكريم وما لقيه في سبل نشر الدعوة من محن وآلام – إذ أخذته سنة من النوم، فرأى النبي وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف، فقال لطارق: تقدم لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه – ثم هب طارق من نومه مستبشراً ولم يشك طارق في نصر الله بعد ذلك.

وقد ألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء التي سميت بجبل طارق، ونزل المسلمون في مكان يقال له البحيرة جنوبي أسبانيا، وكان الملك لذريق في ذلك الوقت مشغولاً بإخماد ثورة في شمال إسبانيا.

ولما علم بنزول العرب في إسبانيا أدرك ما يحدق ببلاده من خطر وجمع جيشاً جراراً قوامه مائة ألف جندي، فبعث طارق بن زيادة إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد حتى يستطيع الوقوف أمام جيش لذريق فأمده بخمسة آلاف فبلغ عدد جيشه أثنى عشر ألفا.

ومع الفرق الكبير بين الجيشين إلا أن طارق بن زيادة قام في أصاحبه فحمد الله وأثنى عليه وحثهم على الجهاد والتذرع بالصبر وبشرهم بما سيفتحون من بلاد وما يصيبون من غنائم وبذلك ينعمون في دنياهم وآخرتهم فقال وهو على ظهر البحر: أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكن والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هه الجزيرة أضيع من الأيتام على مائدة اللئام، وقد استقبلكم عدو كبير بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم ليس لكن إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعودت القلوب الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية وانتهاز الفرصة فيه لممكن إذا سمحتم لأنفسكم الموت وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة حملتكم على خطة أرخص متابع فيها النفوس – أبدأ بنفسي واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرق الألذ طويلاً، واعلموا أني مجيب لما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية لكة – وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له لنصر ثم هجم طارق على لذريق فضربه بسفه فرمي بنفسه في وادي لكة، فغرق حملت جثته إلى المحيط وحلت الهزيمة بجنده وتشتت شمله وتفرق أيدي إسبانيا.

وقد رأى طارق بن يزاد، بعد أن استشار رؤوساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر فأخذ يزحف على مد إسبانيا وقسم جنده إلى ثلاث كتائب تسير في شبة الجزيرة كل كتبية في اتجاه.

وقد دلهم راعي غنم على ثغرة في سور قرطبة العالي الحصين وأعانت الطبيعية المسلمين على أعدائهم في تلك الليلة فانهمر المطر وسقط الجليد فلم يسمع وقع حوافر الخيل وعبرا لمسلمون نهر قرطبة وباغتوا حراس المدينة الذين انزووا هروباً من المطر والبرد، وتسلقوا السور وباغتوا الحراس وقتلوا نفرا منهم وفتحوا الحصن واستولوا على المدينة عنوة.

يقول ستانلي لينتول: إن انتصار المسلمن في وادي لكنه ألقى بإسبانيا كلها في أيدي المسلمين فقد أخذوا يتسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً.

وذهب موسى بن نصير على رأس جيش إلى الأندلس وفتح مدينة فرمونة وكانت من أحصن مدن إسبانيا ثم ذهب إلى إشبيلية، وكانت من أعظم مدن الأندلس شأناً وأعظمها بناء وأكثرها أثاراً ثم فتح مدينة ماردة التي امتازت بقصورها ومصانعها وكنائسها ثم فتح برشلونة.

أثر فتح الأندلس:

غير الفتح الإسلامي حال أهل الأندلس بوجه عام فقد زال الحكم القوطي وإرثه من تلك البلاد ولم يبق للقوط شوكة إلا فريقاً اعتصم في جبال حليفيفية في الشمال الغربي.

أما اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان في حكم القوط فقد سمح لهم المسلمون بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وسمحوا لهم بحرية الملكية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والطب والفلسفة.

وأحسن المسلمون معاملة الذين حل بهم البؤس والشقاء ونالوا كل حقوقهم المدنية وزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج، وكان اهتمام المسلمين موجهاً إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة، وبدأ الناس يدخلون في الإسلام لما رأوا من التسامح والعدالة والمحبة للناس جميعا.

ويلاحظ أن سياسة التسامح كان لها الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد وعلى دخلوهم في الإسلام وبقي الإسلام في الأندلس نحو ثمانية قرون، وانتهى دور المسلمين حين استولى عليهم الترف فنسوا أنفسهم ونسوا دينهم فتم القضاء عليهم وعادت الأندلس إلى النصرانية مرة أخرى، وانتهى منها الإسلام بصورة واضحة.

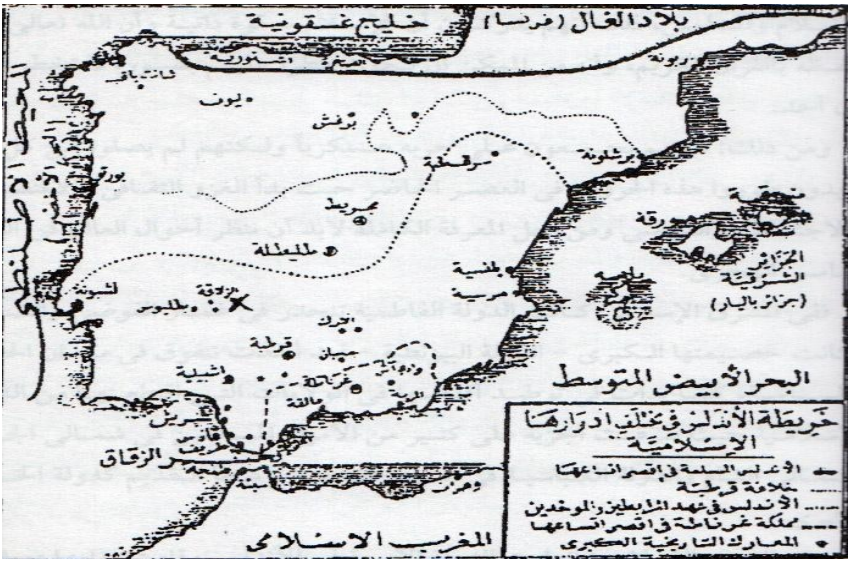

المعركة الإسلامية المنسية في تاريخ الحروب
الفاصلة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ

إن أعداء الإسلام على مدى التاريخ يحقدون على الإسلام بصورة لم تعرف مع غير هذا الدين، والناس على اختلاف مللهم وجنسياتهم لا يجتمعون إلا على حرب الإسلام والمسلمين، ذلك أنهم يدركون أن الإسلام به قوة ذاتية وأن الله تعالى قد حفظه بالقرآن الكريم، وأنه من الممكن أن يكون خطراً عليهم بصورة لا تخطر على بال أحد.

ومن ذلك: فإنهم يجمعون على حربه عسكرياً ولكنهم لم يصلوا إليكل ما يريدون طوروا هذه الحروب في العصر الحاضر، حيث بدأ الغزو الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي ومن أجل المعرفة الكاملة لابد أن ننظر أحوال العالم في القرن الخامس الهجري.

ففي المشرق الإسلامي كانت الدولة الفاطمية تنحدر في غمار الفوضى والضعف وكانت خصيمتها الكبري – الدولة البيزنطية – قد أخذت تتفوق في ميدان الحرب والسياسة، كما بدأت في توطيد أقدامها في الولايات المتحدة التي اقتطعتها من الدولة الإسلامية، حيث فرضت الجزية على كثير من الأمراء المسلمين في شمالي الجزيرة وشمالي الشام والدولة العباسية في الشرق فقدت مركزها القديم كدولة الخلافة الكبرى.

وفي الغرب الإسلامي: انهارت الدولة الأموية في الأندلس وقامت مقامها دويلات الطوائف الضعيفة، وظهرت عليها إسبانيا النصرانية وأخذت تتنزع منها

القواعد الأندلسية التالدة، وبذلك ظهرت على الدول الإسلامية أمارات التفكك والضعف.

أوروباً:

كانت تتمخض عن مقدمات مشروعها الضخم لغزو الشرق الإسلامي، وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تعتبر حصن أوروبا النصرانية في الشرق، وكانت غزواتها في الأراضي الإسلامية توسم – غالباً – بميسم الحروب الصليبية ولكن الدولة البيزنطية قد أخذت من القرن الحادي عشر الميلادي تواجه أخطار ثورة إسلامية جديدة، هي ثورة السلاجقة.

ففي بداية القرن الخامس الهجري أسس السلاجقة دولتهم في فارس التي امتدت إلى العراق ثم حملت مسئولية الدفاع عن العالم الإسلامي على حدود بيزنطة. لقد كان السلاجقة من القبائل الوثنية ثم اعتنق زعماؤها الإسلام عندما نزحوا من سهول تركستان إلى الأراضي الإسلامية المجاوزة وسارت غزواتهم، بعد ذلك باسم الإسلام وتحت لوائه وقد اكتسحوا الأناضول ووطنوا الإسلام فيه حتى وصلوا إلى بحر إيجه ولم يبق للبيزنطيين إلا قواعد متفرقة على سواحل البحرين الأسود في الشمال والمتوسط في الجنوب.

وكان طغولبك: قائد السلاجقة عاقلاً حكيماً، ومن أشد الناس احتمالا وأكثرهم كتماناً للسر وكان كريماً وقد سير في عام "٤٠ هـ ١٠٤٨م" جيشاً بقيادة ابن عمه "قطامش" فغزا ديار بكر، وسير جيشاً آخر قيادة أخيه "إينال" فغزا ارمينية وسار إلى ملاذ كرد وداروث وبلغ في سيره طرابزون ووقعت معارك انتهت بظفر المسلمين وعاد السلاجقة بجموع من الأسرى وكان خراب "أزرن" أعظم كارثة نزلت بأرمينية وبداية انهيار الوطن الأرميني.

وكان بين الأسرى "لباونيس" القائد البزنطي، فعرض القيصر "قسطنطين السابع" افتداءه بمبلغ طائل فرفض طغرلبك عرضه، ثم أفرح عنه دون فدية فأمر قسطنطين السابع بإصلاح مسجد قسطنطينة والدعاء لطغرلبك ولكن الحرب نشبت بنهما سريعاً، وسارع طغرلبك بنفسه لغزو الأراضي البيزنطية وهزم الأرمن هزيمة شديدة، ثم زحف على ملاذكرد وحاصرها بشدة ولكنها صمدت لمناعتها، وبعد ثلاثة أعوام سار طغرلبك مرة أخرى إلى لما ذكرد ووصل إلى أرزن الروم، ولكنه عاد دون قتال وذلك في عام "٤٥٠ هـ – ١٠٥٨م"، ثم توفي طغرلبك عام ٤٥٥ هـ – ١٠٣٦م وخلفه في رئاسة الإمبراطورية السلجوقية ابن أخيه "ألب أرسلان".

كان ألب أرسلان فتى كريماً رحيم القلب مقراً بأنعم الله عليه صارماً قوي النفس العزم، وكان في الثلاثني من عمره وقد خلف والده على الولاية فلما توفي عمه "طغرلبك" تولى مكانه الملك، وغدا سيد إمبراطورية عظيمة تمتد من سهول تركستان إلى سهول دجلة.

لقد نظم شئونه الداخلية وبدأ غزواته فسار إلى قلب الأناضول وغزا مدينة "قيصرية" وفي عام ٤٥٦ سار إلى اذربيجان ثم إلى ارمينيا وبلاد الكرخ "جورجيا" في جيش ضخم وعه ولده ملكشاه ووزيره نظام الملك، وأتم ألب أرسلان في هذه الفترة فتح ارمينة وبلاد الكرخ وضرب عليها الجزية.

لكن ارمانوس قائد الإمبراطورية الرومانية إلى كان يتألف من أعراق مختلفة تمثل الشعوب التي تؤلف الإمبراطورية الرومانية الشرقية من "أرمن سوروس وقونان وكرخ وتركش وغيرهم أراد أن تأخذ حربه صيفة الحروب الصليبية المقدسة وحدد لنفسه هدفاً استراتيجياً هو القضاء على الفتى الإسلامي اليافع ألب أرسلان،

وقدر المؤرخون عدد جيشه بثلاثمائة ألف ويضم ثلاثين ألف من الفرسان جلهم من الروس الأشداء.

وفي أوائل سنة ١٠٧١م سار ارمانوس نحو الولايات الشرقية في جيش ضخم، وكان أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية للقضاء على الإسلام وسار الإمبراطوري صوب أرمينة.

وسمع ألب أرسلان بذلك فسارع إلى لقاء الروم في جيش قوامه خمسة عشر ألف فارس.

وكان ارمانوس قد وصل إلى ملاذكود بأرمينية "وهي مدينة حصينة تقع على نهر مادسيون وضرب ارمانوس حولها الحصار والتقت طلائع السلاجقة بطلائع الروح فهزم الروم وأسر قائدهم "بانبكوس وأبدى السلاجقة بهذه الضربة – توقهم في النظام والسرعة والجرأة وبدأت القوات الأخرى في الانسحاب، وطلب ألب أرسلان عقد هدنة، ورد ارمانوس: لا سلام ولا هدنة إلا بالري.

والري هي قاعدة الدولة السلجوقية، وهذا يعني القضاء على الدولة السلوجقية.

تقدم "ألب أرسلان" نحو عدوه بقوات تبلغ نصف قوات البيزنطيين وكان الأمبراطور أرمانوس قد أرسل قسماً من جيشه لاحتلال "إخلاص"، وهي حصن على الشاطئ الشرقي لبحيرة "وان" وملاذكرد الواقعة إلى الشمال من بحيرة وان.

معركة ملاذ كرد:

أدرك الجميع خطورة هذا الوضع وفي مقدمتهم الخلفة بأمر الله، حيث أمر الدعاء بالنصر على المنابر، وعمل نسخاً من الدعاء ودفعها إلى الخطباء وفيها:

اللهم أعل راية الإسلام وانصره، وادحض الشرك واقطع أواصره، وامدد المجاهدين بالفوز الذي يطول به باعهم، وأمد السلطان ألب أرسلان بالنصر فإنك تقول وقولك الحق: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } "سورة الصف: ١٠-١١".

فابتهلوا – معاشر المسلمين – إلى الله بالدعاء له بنية صافية وعزيمة صادقة وقلوب خاشعة فإنه سبحانه وتعالى يقول: {قل ما يعبأ بكم ربي} "سورة الفرقان:٧٧".

وقال ألب أرسلان وأمامه أبو نصر البخاري الحنفي: "إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله سبحانه وتعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون الخطباء فيها على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة، وقام الجميع يصلون الله، وكبر السلطان وكبر معه الجميع وبكى وبكوا من خشية الله، ورددوا في الدعاء معه ثم قال لهم: من أراد الإنصراف فلنصرف فما هنا سلطان يأمر وينهي، وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس "كناية عن تحضير نفسه للالتحام بالأعداء"، وليس البياض، وتحنط وقال: "إن قتلت فهذا يكفي".

ثم زحف على رأس قواته نحو الروم، وزحف الروم للقائه. وكان ألب أرسلان يعتمد على براعة حملة السهام من فرسانه ووقع الاشتباك بين الجيشين في ظاهر ملاذكرد على ضفاف نهر أكساس، وزحف ارمانوس في قواته دفعة واحدة واستمر القتال حتى مغرب الشمس، وثبت المسلمون وأبدوا منتهى البراعة والجلد.

ولما رأى أرمانوس ما لحق بجيشه من الأعياد والتعب عدل عن الارتداد ليستأنف القتال في اليوم التالي، ولكن السلاجقة المسلمين صدوا الضغط على الصفوف المترابطة حتى أحدثوا ثغرة، وعندئذ هرع فرسان المسلمين وانهالوا إلى قلب الروم وأمطروهم وابلا من السهام المميتة، وانقض السلاجقة على الروم من كل ناحية وحصدوهم حصداً وأخذوا ما بالمعسكر الروماني.

وحاول ارمانوس أن يجمع من حوله قواته الممزقة وأخذ يقاتل بمن بقي معه حتى خرج وأسر في النهاية، ووقعت الهزيمة المروعة في أواخر ذي القعدة عام "٤٦٣هـ –٢٦ من أغسطس سنة ١٠١٧م"، وقتل مهم عدد كبير وأسر الإمبراطور البيزنطي.

بعد النصر:

وبعد النصر عقد ألب أرسلان مع الملك الأسير جلسة تأدب له وضربه ثلاث مقارع وقال له "ألم أرسل إليك رسل الخليفة – أطال الله بقاءه – في إمضاء الهدنة فأبيت؟ ولقد رأيت أثر البغي.

فقال أرمانوس: أيها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس، وأنفقت الأموال لأخذ بلادك، ولم يكن النصر إلا لك، ووقوفي بين يديك على هذه الحالة يعد هزيمة، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما بدا لك.

قال السلطان: لو كان الظفر لك ما كنت فعل بي؟

قال: القبيح.

قال السلطان: صدقت ولو قلت غير هذا لكذبتك ثم قال: ما تظن أني فاعل بك؟

قال: واحد من ثلاث:

إما أن تقتلني، أو تشهرني في بلادك، أو تعفو عني وتقبل الأموال والهدية وتردني إلى ملكي مملوكاً لك ونائبك في بلاد الروم، فإن قتلك لي لن يفدك، وسينصبون غيري إمبراطوراً.

قال السلطان ألب أرسلان: ما قررت إلا العفو عنك فاشتر نفسك.

واتفق على مليون ونصف مليون دينار وجزية سنوية مقدارها ٣٦٠ ألف دينار، ويرد إنطاكية والرها ومنبج وملاذكرد إلى السيادة الإسلامية، وأن يسرح جميع أسرى المسلمين لديه، وأن يساعد ارمانوس السلطان عسكرياً وقت الحاجة.

وفي صباح اليوم التالي أحضره السلطان وقد نصب له سريراً أجلسه عليه وألبسه قلنسوة وقباء وقال له: "قد اصطفيتك وقنعت بأمانتك وأنا أسيرك إلى بلادك أرد إليك ملكك".

فقبل الأرض بين يديه.

وعقد له السلطان راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وجعل له حاجبين ومائة غلام وسيره إلى بلاده، ولكن الانقلاب حصل ضد الإمبراطور أرمانوس قبل وصوله إلى عاصمته، ووضعت امرأته في دير، ولم يستطع السلطان أن يصل إلى إمبراطوريته وقد خسر كل شيء.

وكانت هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد دليلاً على نهاية الدولة البيزنطية التي كانت تحمي المسيحية من ضغط الإسلام، وتحمي الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين.

آثار المعركة:

هذه المعركة تعتبر من المعارك الفاصلة من تاريخ الإسلام، وإن كانت غير معروفة عند الكثيرين من المسلمين في هذا العصر، لأن أحداً لا يكاد يتحدث عنها حتى من المتخصصين في علم التاريخ.

لقد حطمت هذه المعركة الدولة الروماني الشرقية، ومهدت لقيام مملكة إسلامية في قلب آسيا الصغري، وقد ترتب عليها آثار مهمة منها آثار مباشرة ومنها آثار غير مباشرة.

فقد أسر ملك ثاني إمبراطورية كبرى في العالم في ذلك الوقت، وقضي على جيشها قضاء مبرماً ما أضعف هيبتها، وشجع الجرمان على الانفصال من مملكتهم عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كان العالم يعترف لها بالزعامة في ذلك الوقت.

كما أدت تلك الهزيمة إلى انكفاء ما تبقى لدى البيزنطيين من قوة الغرب واندفاع المسلمين نحو ساحل بحر مرمرة حتى وصلوه ولم يبق بينهم وبين القسطنطينية سوى أميال معدودة. وقد انطبع الأناضوول بعد ذلك بالطابع الإسلامي ولا يزال حتى الآن، وبذلك زال الخطر أيضاً عن شمال الشام واستطاع السلاجقة استرجاع إنطاكية في عام ١٠٧٥م.

وقد أصبحت شبة جزيرة الأناضول حتى بحر مرمرة ملكاً للمسلمين، وتأتسست بعد ذلك دولة السلاجقة والتي لعبت دوراً مهماً في الوقوف في وجه الحملات الصليبية التي قدمت من أوروبا في نهاية القرن الحادي عشر للميلاد.

يقول المؤرخ الغربي "انسجان":

إن عام ١٠٧١م يعتبر نقطة تحول في التاريخ البيزنطي، ونظراً للآثار المدمرة التي خلفتها المعركة على هذه الإمبراطورية فقد سارع ميخائيل، وطلب النجدة من بابا روما جريجوري السابع سنة ١٠٧٣م، وكاد البابا أن يستجيب له لولا انشغاله بالخلاف مع إمبراطور ألمانيا، حيث سارع خلفه ادريان الثاني إلى إعلان الحرب المقدسة التي سميت بالصليبية ضد المسلمين انتصاراً للعالم النصراني.

وقد بسط النفوذ السلجوقي الإسلامي السني على بلاد الشام، وتقهقر النفوذ الفاطمي واستعادت الخلافة العباسية قوتها المعنوية، واستعادت الدولة أيضاً قوتها العسكرية.

واستطاع الخليفة بعد ذلك مباشرة أعمال القيادة لفترة طويلة من الزمن.

كما أدى وجود السلاجقة في بلاد الشام إلى حمله عبء التصدي للغزاة لفترة طويلة سواء بشكل مباشر، أو على أيدي قوادهم بشكل غير مباشر.

ولم تمض على معركة ملاذكرد خمسة عشر عاماً حتى استطاعت جيوش الأندلس – والمرابطين – أن تسحق قوي إسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩هـ ١٠٨٦م.

وقد انتقل ألب أرسلان في عام ٤٦٥هـ إلى رحمة الله وحمل جثمانه إلى مرو، ودفن بجوار أبيه وعمره أربعون سنة.

وما أحوجنا في هذه الأيام إلى قائد مثل ألب أرسلان حتى يعيد إلى الأمة الإسلامية عزتها وكرامتها.

إن أعداء الإسلام يمكرون ويمكر الله خير الماكرين.

موقعة الزلاقة

أو يوم العروبة والإسلام سنة ٤٧٩هـ

مهما اختلف النساس في صحة العبارة القائلة: "التاريخ يعيد نفسه" فإنهم لا يختلفون في أن هناك عوامل للنصر وعوامل للهزيمة وأن هذه العوامل في مجموعها لا تختلف من عصر إلى عصر ولا من مكان إلى مكان.

ولقد أمضى المسلمون في الأندلس عدة قرون نشروا فيها حضارة الإسلام والعمل فتأثرت بذلك أوروبا كلها، وكان ذلك سبباً في نقلها من عصر الظلمات إلى عصر النور.

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وابتعوا الشهوات وانقسموا شيعاً وأحزاباً: كان ذلك في عصر ملوك الطوائف، حيث أصبح لكل مدينة ملك مشغول بنفسه ومتنافر مع غيره إلى درجة أضعفت ملوك الطوائف، فبدأوا يستعينون بأعدائهم من ملوك الأفرنج على رأسهم الفونس السادس ملك قشتالة الذي أورثه أبوه الكره والبغض والحقد على المسلمين، وقد بادر بالاستجابة لهم وكانت هذه خطوة أولى ما لبثت أن تلتها خطوات أخرى إذا أنه بدأ يأخذ مهم الجزية عن يد وهم صاغرون وبذلك انقلبت الآية فأصبح المسلمون هم الذين يعطون الجزية بدل أن يأخذوها من أعدائهم، لأنهم خالفوا دينهم وتخلوا عن رسالتهم في هذه الحياة؟

ثم كانت الخطوة الأخيرة وهي محاولة الإفرنج القضاء على المسلمين فبدأ الفونس بشن الحروب عليهم يرهبهم ويستولي على حصونهم، منتهزاً فرصة تفرقهم وتخاذلهم وقد جمع شمل الأفرنج وأعدهم للقتال دفاعاً عن ملتهم وقامت الحروب تحت هذا الشعار، ولذلك فإنهم كانوا يتبركون بالقساوسة ويشاورونهم في أمر القتال ضد المسلمين، ومن أكبر الأعمال التي قام بها الفونس استيلاؤه على طليطلة عاصمة الأندلس الكبرى، وذلك بعد توقيعه معاهدة بينه وبين المعتمد ملك إشبيلية، وقد جاء في أحد بنودها ما يأتي:

"يتعهد ملك قشتالة بزن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الملوك المسلمين – وتعهد ابن عباد بأن يترك الفونس حراً طليقاً في أعماله ضد طليطلة ولا يعترض على مشروعه في الاستيلاء عليها".

ولذلك فقد كان ولابد وأن تسقط طليطلة بعد أربعة قرون من حكم الإسلام وكان لسقوطها دوي كبير في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً – كما كان له أثر كبير في حركة الاسترداد، فهنأ النصارى بعضهم بعضاً وزادهم ذلك حماساً في طلب باقي الأرض – ومن ناحية أخرى علا شأن الفونس السادس بين قومه.

كما أخذه الغرور، ولقب نفسه بالإمبراطور ذي الملتين وأصبح يبدز رسائله قائلاً: "من الملك ذي الملتين الملك الفضل...".

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استولى على "بلنسية"، ثم حاصر "غرناطة" وسار حتى وصل إلى جزيرة "طريف" في أقصى الجنوب فأدخل قوائم فرسة في البحر وقال: كما يقول ابن بسام: "هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته"

ثم بدأ يعد العدة للإغارة على "إشبيلية" نفسها فجهز جيشين من رجاله وسار على رأس جيش ثالث لمهاجمة "المعتمد" في عقر داره.

يقظة المعتد:

وهنا – هنا فقط بدأ ابن عباد يحس بخطئه وأصبح ينظر إلى المستقبل بعين الخوف لأنه أدرك أنه مكول لا محالة! وحينئذ لن ينفعه أن ينادي: "ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض" فناقش الأمر مع ابنه وقال له: هذا اللعي "الادفنش" وقد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر، قد رفع رأسه إلينا وإن نزل علينا كما نزل على – "طليطلة" فإنه ما يتركنا حتى يأخذ "إشبيلية"، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك "العدوة" نستدعيه للجوار، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين إذ لا قدره لنا على ذلك بأنفسنا وقد أبغضنا الخاصة والعامة".

وقد كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ما حدث من ابن شاليب اليهودي الذي أرسله الفونس على رأس جماعة لتستلم الجزية من المعتمد إذ قال: "والله لا أخذ هذا العيار ولا آخذه إلا مشجراً وبعد هذا العام لا أخذ منه إلا اجفان البلاد"، ورد المال إلى المعتمد فلم يتحمل ابن عباد هذا الموقف من اليهود وقال لجنوده، ائتوني باليهودي وأصحابه، وسجن النصارى وصلب اليهودة ورفض الفدية التي قدمها له وهي زنته مالاً.

وقال هو: والله لو أعطيتني "العدوة" والأندلس ما قبلتهما منك "وبعد صلب اليهود أطلق سراح المعتقلين في مقابل أن يرد إليه الفونس حصناً كان قد أخذه.

وجاء الفونس بجيوشه لمحاصرة إشبيلية وأرسل إلى ابن عباد رسالة ساخرة يقول فيها: "كثر – بطول مقامي، في مجلسي الذباب واشتد على الحر فاتحفني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي"، وتضايق ابن عباد أشد الضيق، فلم يتمالك نفسه من أن يأخذ الرسالة ويكتب على ظهرها قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله".

وبدأ ابن عباد يتصل بملوك الطوائف ليكتوبوا إلى ابن تاشقين وقد بلغته أنباء بطولته وقوة شخصية وآماله لتوحيد المسلمين والتمسوا منه معونته بالعبور إلى أهل الأندلس، ليتولى قيادة الصف الإسلامي وقد حاول بعض الملوك المسلمين أن يثنوا ابن عباد، وأن يخوفوه من يوسف إلا أنه قال له كلمته المشهورة "إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير"، يعني أن ملك ابن تاشقين لهم خير من أن يملكهم الفونس.

واتصل ابن عباد ومعه بعض ملوك الطوائف بيوسف بن تاشقين الذي رد بقوله: "تحبة من سالمكم وسلم عليكم وإنكم ما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوص بأكرم إيثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام".

موقف العلماء:

كان العلماء الذين يحرصون على أداء رسالتهم ويرضون ضمائرهم يسدون النصحية للملورك طوال هذه الفترة ويقومون بالزمر بالمعروف والنهي عن المنكر – ولكن هذا كله لم يمكنهم من أن يوقفوا موجة الضعف والخور لدى الحكام حتى وصل بهم الأمر إلى الحقد والحسد ثم الخصام والحروب وأخيراً استعداء

الأعداء ثم اجتمع العلماء في قرطبة وتبادلوا الرأي فيما وصلت إليه حالة البلاد من سوء وضعف ثم ساروا إلى القاضي ابن أدهم وقالوا له: "ألا تنظر ما فيه المسمون من الصغار والذلة إعطائهم الجزية إلى الإفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم وابن عباد وهو الذي حمل الإفرنج على المسلمين حتى جرى عليه ما جرى، وطلب منه ما طلب وقد دبرنا رأياً نعرضه عليك.." ثم أشاروا على القاضي أن يكاتب يوسف ويرغبه في الوصول إليهم أو يرى قائدا من قواده فوافهم على ذلك، وبدأت اتصالات علماء الأندلس تاشفين ثم قام العلماء الذين أهمهم الأمر وآلمهم ما وصل إليه المسلمون من ضياع بالسعي إلى توحيد القوى، وفي مقدمتهم أبو الوليد الباجي الذي طاف بالإمارات الأندلسية المختلفة يدعو الأمراء إلى جمع كلمة المسلمين وإلي الاستعداد – للانخراط في صفوف المجاهدين كما اتصلوا بإخوانهم من فقهاء المغرب وراحوا يمهدون لاستقبال الجيوش المرابطة التي ستحل بالجزيرة لإنقاذ البلاد".

يوسف بن تاشقين:

أما دعوة المرابطين بالمغرب لرجل الزهد في المال وفي الرياسة وفي عرض الدنيا والذين أخذ على عاتقه مهمة أن يعيد إلى المسلمين عزهم ومجدهم وقوتهم – ثم هو القائد الإسلامي الفذ الذي يجيد رسم الخطط والتعبئة الكاملة وانجاز الخطط المناسبة التي توصله إلى النصر على الأعداء.

كان يتتبع الحوادث الجارية في الأندس وكان يحس بالمرارة لما وصل إليه حال المسلمين هناك من سوء وكان كثير الصمت والتأمل، لا يتكلم إلا إذا أجبر على الكلام.

وحين وصلته الدعوات المتتالية من الأندلس لإنقاذ المسلمين مما هم فيه قال: "أنا مندوب لنصرة هذا الدين ولا أتولى هذا الأمر إلا أنا بنفسي" ثم بدأ في إرسال عيونه لينقلوا إليه صورة كاملة عن مواقع الإفرنج وعن الأسلحة التي يستخدمونها ليكون على استعداد كامل.. ولم يكن يثق في أحد من أهل الأندلس لأنهم في رزيه إما فاسق أو متحلل أو مستتر!! ولذلك فقد كان مستقلاً عن ملكوك الطوائف حين عبر لإنقاذ الأندلس من الإفرنج وقد اختار "الزلاقة" للنزول فيها وهي سهل يقع في مقربة من البرتغال الحالية بعد أن وافته عيونه بأن الفونس يتجه بجيوشه إلى الجهة الغربية من الأندلس واتخذ لجزيرة الخضراء مقراً للإمدادات والجيوش ونزل مع قواده بعد أن نزل الجيش كله، ويذكر المؤرخون أن البحر قد اضطربت أمواجه قبل أن ينزل يوسف فنهض واقفاً وسط السفينة يستصرخ ربه باسطا يديه بالدعاء قائلاً: "اللهم إن كنت تعلم أن في حوازنا هذا خيراً للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر وإن كان غير ذلك صعبه حتى لا أجوزه".

وهذا الدعاء يبين لنا مدى صلة يوسف بالله ومدى وضوح الهدف في ذهنه، وقد استجاب الله دعاءه وهدأ البحر ووصل القائد أرض الجزيرة بسلام – يقول المراكشي: إن المعتمد بن عباد طلب منه أن يستريح في أشبيلية فرفض قائلاً: إنما جئت ناوياً إجهاد العدو" كما رفض أن يدخل في مشاكل ملوك الطوائف، لأنها تأخ الوقت والجهد وتشغله عن الهدف الأصلي، وأشار عليهم بأن يسووا أمورهم فيما بينهم وبين أنفسهم لأنه جاء للجهاد.

وقد توافد ملوك الطوائف إلى يوسف بدعوة منه للجهاد في سبيل الله، وقد رأوا يوسف وجيوشه يسرعون إليهم ملبين دعوتهم لإنقاذهم مما هم فيه وكان روح

المسلمين في الأندلس كانت في حاجة إلى قيادة مؤمنة تشد من عزمهم وتربط بين قلوبهم وقد انضم إلى جيش، المرابطين قوات المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس وعدد من ملوك الطوائف والمتطوعين من سائر البلاد الإسلامية.

الإعداد للمعركة:

أكثر يوسف من استخدام الخيل وكون فرقاً من الفرسان المدربة على القتال، كما كون فرقاً لبست الدروع والخواذات، وكان بجيش يوسف جميع أنواع الأسلحة قديمها وحديثها وقد بنى الأسوار والحصون وشحنها بالأطعمة والأسلحة ورتب فيها العسكر، كما كانت لديه القدرة على اكتشاف المواهب والقادة وكان يعد كل واحد للدور الذي يصلح له وكانت لديه سيطرة كاملة على جيوشه وكان يقظاً حذراً مستعداً دائماً لملاقاة العدو.

ورأى القائد يوسف أن يقسم الجيوش إلى معسكرين معسكر الأندلسيين من ناحية ومعسكر المرابطين من ناحية أخرى، ليعرف كل مكانه في الجهاد – وكان يدعو ملوك الطوائف إلى الألفة والمودة والتمسك بالدين ومواصلة الجهاد حتى ينتصروا على أعدائهم وقد جعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتدم وجعلها في المقدمة كما جعل القوات المرابطة تحت قيادته في المؤخرة وجعل قائدين من قواده للطوارئ وهما سليمان بن عائشة وأبو بكر: سير ابن أبي بكر، وذلك حسب تخطيط بارع يدل على عبقريته الحربي وأخذت الجيوش كلها مواقعها في بطحاء الزلاقة استعداداً للمعركة.

معسكر الإفرنج:

كانت أنباء المرابطين وعبورهم البحر قد وصلت إلى أسماع الفونس – وكان في ذلك الوقت محاصراً لسرقسطة المسلمة – فذعر لهذه الأنباء وعزم

على الانصراف ولكنه أراد أن يغطي خسائره فأرسل إلى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يطلب منه مبلغاً كبيراً من المال مقابل أن يفك الحصار عنه.

وكانت أخبار المسلمين قد وصلت إلى مسامع المستعين فامتنع ساخراً من الفونس فم يضيع الفونس وقته وعاد إلى طليطلة عاصمته الجديدة ومعه الجيوش والعتاد، وبعث إلى "شانشوار" أمير زملك: يطلب منه الإسراع لنجدته وكان محاصراً لطرطوشه المسلمة كما طارت رسله إلى "ليون" وقشتالة وغيرهما فوصل إلى طليطلة عشرات الألوف من الرجال والفرسان ووفدت من البلاد المجاورة من ولايات فرنسا وإيطاليا وغيرهما مما وصلت إليها أخبار الحرب، وتحولت إلى حرب صليبية رفع فيها القساوسة والرهبان والأساقفة الصلبان ونشروا الأباطيل ودعوا لقتال المسلمين.

وقد اغتر الفونس بعد ذلك وأرسل إلى المعتمد يقول: "إن صاحبكم يوسف قد جاء من بلاده وخاض البحار وأنا اكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراًعليكم"، يريد أن يلقى المسلمين في أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت الهزيمة.

وقدرت جيوش الفونس بثمانين ألف مقاتل وأرسل الفونس جواسيسه ليجمعوا له الأخبار من كل مكان، وكان المختارون من جنده أربعين ألف دارع وكان يقول: "هؤلاء قاتلوا الجن والأنس وملائكة السماء" وكتب كتاباً مطولاً إلى يوسف يهدده ويصف ما عليه جيشه من بأس وقوة وما معه من عدد لا قبل لهم به، وكان يعلم أن جيش يوسف يبلغ عشرين ألف، فلما وصل الكتاب إلى يوسف أجاب مبتسماً واثقاً من نصر الله، هذا كتاب طويل اكتبوا على ظهره: "الذي يكون ستراه".

وأعاد الكتاب إلى الفونس واتبعه يوسف بكتاب آخر سار فيه على سنة رسول اللهﷺ وأصحابه من بعده إذ عرض فيه على الفونس الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب يقول في رسالته التي بعث بها إلى ابن إدريس: "فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ودخوله في ملة محمد عليه السلام أو دفع الجزية عن يد وهم صاغرون".

وأراد الفونس أن يقوم بخدعة حربية تعطيه فرصة الانقضاض على الجيش الإسلامي وهو على غير استعداد: ذلك أنه قال لرسول يوسف: "إن غدا الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال، ولست اختار اليوم التالي وهو يوم الأحد فإنه يوم النصارى، وعلى ذلك فإني أقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منها أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال بيومه وأدرك يوسف الخداع، وأخذ حذره وجاءت عيونه تخبره بالجلبة والحركة والضوضاء في معسكر النصارى، مما يدل على أن القوم يستعدون للقتال.

المعركة:

في أثناء ليلة الجمعة جاء فارسان من فرسان استطلاع المسلمين وأخبرا يوسف بأن هناك تحركات غير عادية في جيش الأعداء، وبأنه سمع ألفونس يقول لجنوده "إن ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصاير في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد – فاقصدوا ابن عباد واهجموا عليه واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون من بعده ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة".

وما كان يظهر ضوء صبح يوم الجمعة الموافق ٢٥ من رمضان ٤٧٩هـ حتى زحف الإفرانج على الجيش الإسلامي، وبدأ القتال بهجوم من مقدمة

الفونس على القوات الأندلسية التي يقودها ابن عباد الذي جعل يسير وسط جنوده وهو يردد هذه الأبيات:

لابد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليك مبارك ... سيعود بالفرج القريب

لابد من يوم يكون أخاً يوم القليب

ولكن حملة الفونس كانت قوية فما لبث جيش الأندلسيين أن فر معتمصاً بأسوار "بطليوس" تاركاً المرابطين وحدهم لكن المعتمد صمد للقتال مع فئة قليلة من جنوده، وأصدر يوسف أمره إلى فرقة من القوات المغربية التي يقودها سير بن أبي بكر لتشغل قوات الفونس، واستطاع سير أن يوقف تقدم قوات الفونس التي ما لبثت أن انشغلت بمطاردة الأندلسيين وهذا ما كان يهدف إليه يوسف حتى يظهر عنصر المفاجأة الذي كان غالباً ما يدخره القادة العظام ليكسبوا به المعارك.

نزل يوسف بنفسه إلى قلب المعركة في خطة مفاجأة وانقض على جيوش العدو من الخلف، واستولى على معسكر الأعداء وأدر فيهم القتل وكان صوت الطبول يشق عنان السماء فصمت آذان الإفرنج وأوقع ذلك في قلوبهم الرعب حيث لم يكن لهم عهد بمثل ذلك، وأصيبوا بالذعر حينما شاهدوا معسكراتهم تلتهمها النيران التي ارتفعت إلى السماء وسيوف المرابطين تحصدهم.. وما إن علم الفونس ما حل بمعسكره حتى ارتد لينقذ القيادة من الهلاك فاصطدم بمؤخرة المرابطين ودارت معارك رهيبة كانت خسارة الإفرنج فيها فادحة، ولما وصل إلى محل قيادته استؤنفت المعركة وكان يوسف فوق فرسه يقرأ القرآن ويحث جنوده

على الثبات ويرغبهم في الاستشهاد، ثم أرسل إلى جنوده بتغيير خطة القتال فقد تحكم المرابطون في جبهة القتال وبدأوا في صفوف متراصة متناسقة ثابتة وهي خطة مبتكرة في القتال لم يعهدها الفونس من قبل فأصيبوا بالذهول واستسلموا للموت، وقد عجزوا عن المقاومة ومن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التي فاقت بتنظيمها وقوتها وقدرتها كل خيال.

ثم جمع يوسف شمل المرابطين الأندلسيين وساروا يعملون السيوف في الأعداء المنهكين، وأشار يوسف إلى القوة السودانية بالنزول إلى المعركة وكانت أربعة آلاف مقاتل، فانقضت على النصاري انقضاض الصاعقة واسطاع أحدهم أن يصل إلى الفونس، وأن يقتل فرسه ويطعنه بخنجر في فخذه طعنة نافذة ففر هارباً هو وجماعة من خاسته يبلغون خمسمائة فارس واعتصموا بتل كبير قريب حتى دخل الليل فساروا حتى وصلوا عند "قوية" على بعد عشرين مرحلة من ميدان القتال، وكان معظمهم من المثخنين بالجراح، ومات كثير منهم في الطريق ولم يصل إلى طليطلة سوى مائة.

ومضى المسلمون في ميدان القتال يرقبون الموقف حتى لا يفاجأوا بما لم يكن في حسبانهم، وفي الصباح أخذ فرسانه في مطاردة المختلفين بينما عمدت فرقة منهم إلى جمع المغانم وقد كانت وفيرة حتى كان الفارس منهم يربط معه خمسة أفراس أو – أزيد – وجمع جنوده وذلك بعد أن أمر بدفن الشهداء من المسلمين وقد استشهد نحو، العشرين من كبار المسلمين منهم قاضي مراكش أبو داود وعبدالملك المعمودي.

وقد أشار المؤرخ الألماني المعاصر "جوزفين أشياخ" بالدور العظيم الذي قام به المرابطون واستطاعوا أن ينقذوا مسلمي الأندلس، كما أشار بقول ابن

تاشقين حاضاً على الجهاد في سبيل الله: "يا معشر المسلمين اصمدوا لجهاد أعداء الله الكافرين من يرزق الشهاء فله الجنة، ومن يسلم فقد فاز بالأجر العظيم".

خاتمة:

عمت الفرحة المشرق والمغرب وسجد المسلمون شكراً لله على ما أولاهم من نصر مبين، وعلى يد رجال اصطنعهم لنفسه فأخلصوا له أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ووصلت وفود المهنئين إلى أمير المسلمين، وتحركت أريحية عالم المسلمين الإمام الغزالي، فأرسل إلى يوسف يهنئه بنصر الله ويعده باللقاء فقد اعتبره الأمير المثالى ودعا الله أن يديم نصره ليعيد للإسلام قوته وعزمه، وسمي هذا اليوم بيوم العروبة والإسلام.

فقد أثرت معركة الزلاقة في معنويات "الفونس" فكسرت من غروره، وأضاعت آماله إذ إنه كان يمني نفسه بالهيمنة على شبه الجزيرة كلها في أقرب وقت بطرد المسلمين، ثم إنه حرم من الجزية الهائلة التي كان يدفعها له ملوك المسلمين وأحس أنه أمام جبهة قوية تهدده بالخطر.. وأصيب التكتل الإفرنجي في أوروبا بصدمة عنيفة حينما وصلته رسائل الفونس تحذره من قوى التحالف بين ملوك الأندلس ويوسف بن تاشقين وتطوع، ملوك أوروبا لتغطية الخسائر وعاد يوسف إلى بلاد المغرب بعد أن ترك ثلاثة آلاف جندي لتكون عوناً عند اللازم.

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة لقد أوشكت غارات الفونس في الماضي أن تحقق أهدافها بسبب الخلافة بين حكام المسلمين وتفرق الكلمة وفتور الهمة وانتشار الفساد فأقبل الخطر الإفرنجي بخيلة ورجله ودعواه ودعايته وتعرضت الأندلس للهزيمة، وأشرفت على الضياع لولا أن قيض الله لها وللإسلام قائداً شجاعاً مؤمناً

بالله واثقاً بنصره هو يوسف بن تاقين الذي رفع لواء الصلة بالله والجهاد في سبيله ووحد المسلمين لصد غادرات الإفرنج فحفظ للبلاد استقلالها، واستبقى للحضارة الإسلامية فاعليتها وقدرتها.

وهكذا كانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، وأكد أن المسلمين ينهزمون حينما يتركون دينهم ويتبعون أهواءهم ويخاصم بعضهم بعاَ وينتصرون حينما تتحد كلمتهم ويتجهون إلى ربهم وينصرون دينهم وصدق الله العظيم إذ يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } "محمد:٧".

موقعة حطين رمضان سنة ٥٨٣ هـ

لما جاء الصليبيون معركة النعمان وفتحوها قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السرادقات وكان عدد القتلي مائة ألف.

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل البلد الذي يدخلونه في بلاد المسلمين ويخرجوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره وقد أحرقوا دار الحكمة في طرابلس، وكان بها مائة مجلد.

وكان بالقدس من الصليبيين ٦٠ ألف مقاتل وكان السكان من الصليبيين يرون أن الموت أيسر من أن يملك المسلمون بيت المقدس.

ويلاحظ أن الحروب الصليبية كان دافعها سياسياً، وذلك لتوطيد سلطة الكنيسة وسيطرتها على الإمارات الأوروبية، وبذلك يتحقق خضوع جميع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا، وفي هذا يقول المؤرخ الفرنسي اندريه رينان:

وهكذا جندت البابوية أوروبا لتنفيذ خطتها الواسعة وأرغمت الأمراء على الخضوع لها عن طرق مختلفة فانقضت جيوشهم بشغف لإنقاذ أورشليم، وقد أعلن الباب أن كل من يشترك في الحرب ستغفر له ذنوبه وخطاياه بالقوة التي زود بها الله، ومن هنا نشأت فكرة الغفران وأصبحت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية.

وقد وجدت هذه الدعوة صدى كبيراً ففي السنة الثالثة كان يزحف على طرق الشرق مائة وخمسون ألف رجل من جميع أنحاء أوروبا بقيادة جود فري،

وقد مات ارمانوس الثاني قبل أن يتلقي التهنئة بدخول الصليبيين بيت المقدس في ١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩ – وقد أنشأوا إمارات أربعة هي الدها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس.

يقول الأستاذ نقولا زيادة: إن الحملة الصليبية الأولى والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يشرف بل ويظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم السيئ مع مسيحي فلسطين أنفسهم فقد استولوا على أديرتهم وطروهم من الكنائس والبيوت فتفرق المسيحيون في فلسطين وشرق الأردن، وكان بطريقهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين، وهذا يحدث في نفس المكان المدس الذي علم فيه المسيحيون الناس الحب والرحمة حتى مع الأعداء فكيف تحصل المجازر البشرية التي قتل فيها الصليبيون أكثر من سبعين ألف في بيت المقدس، وقد تشرد مسيحيوا الشرق والتجأ البطريق ليقيم بمصر تحت حماية الخلفاء الفاطميين، مما يدل على الدوافع السياسية وقد فضل أكثر المسيحيين في فلسطين أن يتركوها – بعد دخول الصليبيين ليقيموا مع إخوانهم المسلمين وتحت حماية الفاطميين بمصر.

العالم الإسلامي:

في هذه الفترة كان العالم الإسلامي ينقسم إلى ثلاثة أقسام ولكل قسم فروع وأجزاء – ولم يكن بين دول العامل الإسلامي رابطة متينة – بل إن اثنتين منا كانتا على خلاف وعداء وهما الدولة العباسية والدولة الفاطمية.

ومعنى ذلك أن العالم الإسلامي لم يكن متماسكاً بل إنه كان مقسماً إلى دول متنافسة وما أشبه الليلة بالبارحة، وكانت الدولة العباسية مقسمة إلى إمارات وكان بعضها يستعين بالصليبيين ضد إخوانهم المسلمين.

وقد تولى صلاح الدين الأيوبي سلطنة مصر سنة إحدي وثلاثون، وذلك في سنة ١١٦٩م ولقب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي: وقد أحس صلاح الدين برسالته، وأن عليه طرد الصليبين من الأرض المقدسة وأن يهب نفسه وحياته للجهاد في سبيل الله، وأن يضع نصب عينيه دعامتين بني عليهما سياسته التي لا يحيد عنها:

أولاً: توحيد الأمة الإسلامية بحيث تؤلف إمبراطورية إسلامية شامخة.

ثانياً: عندما يتم هذا يتجه بقوات المسلمين المتحدة ليطهر الشرق من الصليبيين.

لقد رأى صلاح الدين أن تمكن الصليبيين من بلاد المسلمين سببه أن العالم الإسلامي مقسم إلى ولايات ضعيفة متناثرة ليس بينها صلة ولا يجمعها هدف واحد – بل إن العداوة والبغضاء انتشرت فيما بينهم في كثير من الأحيان كما رأى أن الأساس الذي يجب أن تقوم عليه سياسة هذه الأمة الإسلامية هو جمعها تحت راية واحدة وحين يتم ذلك سيرحل الصليبيون لا محالة وكانت أول الصعوبات هي جهاد النفس من كل الجوانب وقد انتصر صلاح الدين في ذلك على نفسه وكانت الصعوبة الثانية تظهر في اختلاف القواد على الرضا عن رسالته وكان هم صلاح الدين في البداية إسعاد الشعب المصري ففتح أبوابه للناس وكان يستمع لشكاوي الناس بنفسه ويحقق رغباتهم، ولذلك أصبح محبوباً من الجميع.

لقد كان صلاح الدين الأيوبي متحركاً في كل اتجاه، إلا أن كان يحرص في تحركاته هذه على أقصى درجات السرية لكي يحصل على أكبر قدر من المفاجأة.

وكان ينتقل بجيشه بشكل سريع ومفاجئ بحيث يصعب على أعدائه توقع المكان الذي سيظهر فيه مما جعلهم غير قادرين على اكتشاف نواياه، وتحديد الاتجاه الذي سوف يهاجمهم فيه يقول المؤرخ وليم الصوري في ذلك:

وكان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقي، وقد أبقيت التخمينات المتنوعة والتي كانت جميعها جاعلة الملك والنبلاء في حالة قق وترقب دائمين وكانوا يتوقعون من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من المناطق بقوات قوية فوق العادة.

وقد بدأ يهاجم الصليبين وانتصر عليهم في غزة وظهر أن الخوف من الصليبيين ما هو إلا أسطورة بثوها في نفوس العرب كما فعلت إسرائيل في العصر الحاضر، حيث أشاعت أن الجيش الإسرائيلي لا يقهر وإن خط بارليف لا يمكن اختراقه إلا بالقنابل الذرية.

موقعة حطين:

بعد فتح العقبة استأنفت قوافل الحجاج سيرها إلى الأراضي المقدسة، وكانت تلك القوافل كثيراً ما تهاجم من ريجنالد صاحب حصن الكرك – بشرق الأردن، وكان ريجنالد يدعى الفروسية ولكنه لم يكن يهاجم إلا قوافل الحجاج أو القوافل المسالمة الآمنة.

وفي خلال سنة ١١٨٦م مرت قافلة للمسلمين قرب الكرك وخرج إليها ريجنالد، وانقض عليها وكان الصليبون في هدنة مع صلاح الدين وقد نهب ريجنالد القافلة وأسر رجالها وسبي نساءها وامتلأ زهرا وهو يقول للأسرى: "ما دمتم تعتقدون فيمحمد فادعوه الآن أن يفك اسركم ويخلصكم مما أنتم فيه".

وعلم صلاح الدين الأيوبي بذلك فأعلن الجهاد المقدس ليطهر الشرق من الصليبيين، فقد نقص الصليبيون الهدنة وفعلوا ما فعلوا بالمسلمين.

وجاء الصليبيون من كل مكان وعلى رأسهم ملك القدس الجديد "جوي" وإلي جانبه امراء الصلبيين وكبار رهبانهم وفرسانهم ومنهم الطاغية ريجنالد صاحب الكرك وريجون صاحب طرابلس الذي تناسى الخلاف الذي كان بينه وبين الملك جوي والصداقة التي كانت بينه وبين صلاح الدين التي نمت وترعرعت حتى إنه كان يزور صلاح الدين ويتلقى منه الحفاوة والود.

وسار صلاح الدين إلى طبرية واستولى عليها ثم سار غرباً وأرسل طلائع استطلاعه فعلم أن الصليبيين متحصنون في موقع دفاعي عند طبرية من الغرب من موقع صفورية.

خطة صلاح الدين:

وضع صلاح الدين خطة الحرب مع الصليبيين ومنها أنه كان لا يقوم بالهجوم على الصليبيين في مواقعهم المجهزة – بل إنه كان يستدرجهم للقتال في الأرض المفتوحة التي تناسبه.

ومن خططه أنه كان يبعث بعض قواته ليهاجم قلعة طبرية من جديد ويخرب فيها ويحرق فيسرع الصليبيون لمحاولة إنقاذها عندئذ يسارع صلاح الدين

فيمتلك موارد المياه الوحيدة في تلك الجهة ويطوق الصليبيين في الأرض المفتوحة مع منع أي مورد للمياه عنهم، وبذلك يمكن القضاء عليهم بأقل الجهود.

الموقعة:

أرسلت زوجة ريمون التي لجأ إلى قلعة طبرية تستنجد بالملك جوي، فجمع جوي قواده وامراءه واستشارهم فرأى ريمون عدم الهجوم على صلاح الدين لكبر جيشه.. وخالفه كثيرون في الرأي مع أنه صاحب طبرية وزوجته هي التي تستغيث، واستقر رأي الصليبيين على الهجوم بعد صياح الطاغية ريجنالد: "الحطب الكثير تأكله النار".

وفي الصباح سار الصليبيون نحو طبرية، وعندئذ أصدر صلاح الدين أمره بالاستيلاء على موارد المياه، وبذلك منعت المياه عن الصليبيين فأمض الصليبيون الوصول إلى الماء مهما كلفهم ذلك، ولكن صلاح الدين منعهم وطوقهم تماماً فلم يكن أمامهم إلا القتال وقاتل الصليبيون على شدة العطش والجهد في الجو القائظ، وزاد صلاح الدين على ذلك أنه أمر بإيقاد النار فطغى دخانها على عيونهم فتشبثوا بتل حطين ثم انفضوا يريدون الوصول إلى بحيرة طبرية بأي ثمن وهم يتحرقون وقاً إلى الماء الذي يرويهم ولكن صلاح الدين وقف أمامهم كالصخرة الثابتة فارتدوا إلى التل وأمرهم ملكهم جوي بالانقضاض ثانية وتأدية واجبهم نحو الصليب والعرش، ولكنهم لم يمتثلوا لهذا الأمر فقد بلغهم الإرهاق من العطش مبلغة وقد أحكمت عليهم دائرة الحصار تماماً.

عندئذ أعطى صلاح الدين إشارة الهجوم على الصليبيين فحمل المسلمون عليهم وأشبعوهم قتلاً وأسراً، وألقى الكثيرون من الصليبيين أسلحتهم واتجهوا في

ذلك نحو المسلمين – وقد تدلت ألسنتهم كالكلاب العطشي – بل لقد جر اليأس نفراً من فرسان الصليبيين إلى أن يسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين ويقولون له:

"أيها الملك ما الذي يؤخرك على القضاء عليهم اقض عليهم فهم عجزة أموات".

ولم يبق للصليبيين إلا أمل واحد هو أن يعطي الملك جوي أمر الهجوم إلى ريمون، وقد دفع ذلك ريمون بفرسانه إلى الأمام في هجوم شديد، وتراجع تقي الدين ابن أخ صلاح الدين بأمر منه وفتح ريمون وجنوده طريقاً يخرجون منه، ثم لم تلبث دائرة الحصار أن أقفلت وبذلك فصل الملك جوي عن ريمون وفرسانه، وكانوا يسمون فرسان الصليب وكانوا يقاتلون قتال المستميت فأراد صلاح الدين استبعادهم عن المعركة، ولذلك أعطى الأمر لابن أخيه أن يفتحخ دائرة احصار ليخرجوا من المعركة، وكانت تلك عبقرية من صلاح الدين في إدارة المعركة.

واستمر القتال عند سفح تل حطين ولم تلبث خيمة الملك جوي أن وقعت فكان ذلك إيذانا بانتهاء المعركة وأسر كبار الصليبين فسجد صلاح الدين شكراً لله تعالى الذي نصره على الصليبيين.

وتوالى إحضار الأسرى، وجاء جندي واحد يجري معه ثلثمائة من جنود الصليبيين أسرهم بنفسه وربطهم بحبل متين وأسر الملك نفسه ومن كان معه.

الملك جوي:

بعد موقعة حطين أسرع صلاح الدين فوصل إلى عكا بعد أربعة أيام من المعركة، وقد دخلها فائزاً منتصراً وأمن أهلها الصليبيين ورحلهم بأموالهم سالمين،

واحتفل بصلاة الجمعة في مسجدها الكبير الذي استعمل كنيسة لمدة قرن من الزمان.

لقد كان صلاح الدين الأيوبي يهدف إلى استرداد بيت المقدس وسحق المملكة الصليبية فسار مع قواته إلى عسقلان لكي يتم عزل بيت المقدس عن البحر وطوقها من البر بالمجانيق حتى سلمت بالأمان.

ثم سار إلى بيت المقدس وضرب الحصار حول المدينة المقدسة وضربها بالمجانيق ورد الأفرنج على ذلك فضربوا المسلمين بالمجانيق من فوق الأسوار وقاتلوا أشد قتال، ولكن المسلمين استمروا في ضرب المدينة بشدة وتمكنوا من نقب السور فبعث الإفرنج وفداً منهم يطلب الأمان من السلطان فرفض السلطان في البداية، وذكر الإفرنج بما فعله أسلافهم مع المسلمين وعند افتتاح المدينة من الفتك بأهلها المسلمين جميعاً ثم قبل السلطان منح الأمان للصليبيين واتفق معهم على أن يسلم الإفرنج المدينة على أن يؤمنوا في أملاكهم وكان يعتبر أهلها أسرى يسمح لهم بالبقاء أربعين يوماً وكان بالمدينة وقت تسليمها للمسلمين سبعين ألف رجل ما بين فارس وراجل غير النساء والأطفال.

ومما يذكر أن الصليبيين قد خالفوا مبادئ الفروسية مع ضعفهم وخورهم وصمموا على أن يحاربوا حتى الموت فسلوا سيوفهم ولكنهم أسروا جميعاً بما فيهم الملك جوي وأخوه الطاغية ريجنالد الذي استهزأ قبل عام بمحمد وبالمسلمين، أما ريمون فلم يرخ العنان لفرسه حتى وصل سالماً إلى صور ومنها إلى طرابلس حيث مات بعد ذلك بقليل غراقاً في الحزن والعار ودعا صلاح الدين الملك جوي والطاغية ريجنالد إلى خيمته، وأجلس الملك إلى جانبه وأمر له بالماء فشرب الملك منه وأعطى ما تبقى منه لريجنالد حتى أصبح آمنا إذا

شرب ماء صلاح الدين، ثم قال للمترجم: قل للملك ما سقيته أنا ولكنك أنت الذي سقيته.

نتائج المعركة:

تظهر لنا تلك المعركة العبقرية العسكرية لصلاح الدين الأيوبي – فقد ربح المعركة قبل أن يضرب ضربة واحدة – لقد نجح في خداع العدو تماماً، حيث استدرجه للقتال في الأرض التي اختاره هو لأنها تناسبه ولا تناسب عدوه.

وقد امتلك موارد المياه الوحيدة في تلك الجهة وفي ذلك الجو القائظ جو يوليه – ومنعها من الصليبيين حتى يحاربوا على شدة العطش والجهد – وقد أكمل صلاح الدين خداع العدو بفك الحصار حتى يخرج ريمون وجنده، وبذلك أخرج من المعركة يأشجع فرسان الصليبيين الذين فضلوا النجاة بجلودهم، وبذلك تحددت نتيجة المعركة، ومن نتائج هذه المعركة أن صلاح الدين أسر وقتل في هذه المعركة ملك بيت المقدس وجميع أمراء الصليبيين – وبذلك تفككت الرابطة بين الصليبيين وأصبحوا بدون قيادة صحيحة تجمع قواهم، وكان ذلك فتحاً للطريق إلى القضاء على الصليبيين.

وقد قضى المسلمون ليلتهم فرحين مهللين بعد انتصارهم في معركة حطين – وفي اليوم التالي عاد صلاح الدين إلى طبرية ليستولي على قلعتها – وكان فيها زوجة ريمون وعرفت ما حل بزوجها وبقومها فسلمت القلعة، وهدأ صلاح الدين من روعها وأوصلها إلى حيث أرادت آمنة مطئمنة مع أولادهم وحاشيتها محملة بالهدايا. ويلاحظ أن أروع ما في هذه المعركة بعد نصر صلاح الدين، الشئون الإدارية – المياه والصحراء – وجو الصيف القائظ في وقت لم تكن فيه الشئون الإدارية تخطر على ذهن أي قائد في ذلك الوقت، حتى أن كثيرين من الصليبيين

كانوا يلقون أستلحتهم ويتجهون في ذلك نحو معسكر المسلمين وقد تدلت ألسنتهم من العطش.

ومما يلاحظ أن المفكرين العسكريين لم ينادوا بالشئون الإدارية كمبدأ من مبادئ الحرب إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

أما أهدافها بالنسبة لصلاح الدين فكانت رائعة فقد قتل في هذه المعركة ملك بيت المقدس وجميع أمراء الصليبيين، وبذلك تفككت الرابطة بين الصليبيين وأصبحوا بدون قيادة تجمع قواهم، وكان ذلك مفيداً للسلمين في تحقيق أهدافهم يقول المؤرخ أبو شامة: إن من شاهد قتل الفرنج قال: ما هناك أسير ومن عاشر الأسرى قال: ما هناك قتيل.

معركة حاسمة:

تعتبر موقعة حطين أم المعارك الحاسمة في الحروب الصليبية لأنها مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس وسقوط المملكة الصليبية بعد أن عاشت في قلب الشرق الإسلامي زهاء تسعين عاماً تهدد كيانه ونظمه – وكانت قاعدة حصينة لحملات الغرب ومشاريعه العدوانية المتوالية، وكان سقوطها ضربة قاصية على الصليبيين.

وقد استطاع صلاح الدين الإيوبي أن يجمع كلمة المسلمين من جبال كردستان ومشارف آسيا الصغرى حتى صحراء ليبيا وأن يعتمد على جهودها الموحدة في رد الصليبيين ورد عدوان الغرب النصراني وكانت جيوش صلاح الدين تجتمع في صعيد واحد يشعر الجميع بشعور صلاح الدين ويعملون جميعاً لغاية واحدة هي الذود عن الإسلام وأرضه وحضارته.

تطهير الساحل:

وبعد انتصار المسلمين في حطين انحطت روح الصليبيين وكانت الخطوة التالية لصلاح الدين هي إنقاذ بيت المقدس وقد عرف القائد صلاح الدين كيف يستغل نجاحه بعد حطين فلم يترك للصليبيين فرصة لإعادة تنظيم قواتهم ولم شعثها، بل إنه أسرع فوصل عكا بعد أربعة أيام مع معركة حطين ودخلها ظافراً منتصراً وأمن أهلها الصليبيين ورحلهم بأموالهم سالمين وكانت الحصون والبلدان التي في أيدي الصليبيين سرعان ما تخضع له بدون مقاومة تذكر – بل إن جنودها كانوا يفرون إلى حصون المسلمين وكان الذعر الذي خلفته حطين يطاردهم أينما ذهبوا وسار صلاح الدين إلى قلب فلسطين وأخذ كل ما في بيت المقدس والساحل ماعدا مدينة صور التي بدأت تتحصن.

وفي كل معركة من المعارك كان صلاح الدين يعطي الصليبيين شروطاً نبيلة كريمة لحماية البلدة وأهلها فكانوا يقبلون راضين موقنين بأن وصلاح الدين إذا وعد أنجز ما وعد.

وقد عاون صلاح الدين في تطهير تلك الحصون أخوه العادل الذي سار بجيش من مصر، وقد التقى الجيشان أمام عسقلان وقد أوقف قائد بحريته لؤلؤة بالبحرية المصرية تجاه الساحل لتأمين البحرية ولمهاجمة آية نجدة للصليبيين تأتي إلى فلسطين، وبذلك حوصرت فلسطين من البحر فلم تدخلها نجدة من الغرب وقد شغل قوات الصليبيين الجنوبية بتثبيته لها بوساطة جيش مصر بقيادة العادل، وبذلك أصبح الحصار تماماً فصلاح الدين من الشرق والعادل من الغرب، لقد كانت القدس الرمز والقصد والمناخ، وقد استولى صلاح الدين عليها بعد معركة حطين وقد منح صلاح الدين الأمان الكامل لغير المسلمين فخرجوا

من المدينة بما يملكون، وبقي فيها أبناؤها من المسلمين والنصارى الشرقيين وتحررت القدس بدون إراقة نقطة دم واحدة وهي التي سالت فيها دماء المسلمين قبل تسعين عاماً.

وبعد فترة:

استقر الأمر على أن يدفع الصليبيون ثمناً لحريتهم عشرة دنانير للرجال وخمسة دنانير للمرأة ودينارين للطفل، ويشاء الله تعالى القوي القادر أن يسلم بيت المقدس للمسلمين في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب الذي حدث في مثله من تسة قرون أن أسري الله سبحانه وتعالى بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله.

وارتفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة، ورأى الصليبيون من كرم صلاح الدين الأيوبي ونبله ما رفعه في أعينهم وأعين التاريخ إلى أعلى حد يمكن أن يصل إليه الإنسان.

ومن المصادفات الملفتة للنظر أن صلاح الدين قد فتح أكثر المدن في أيام الجمع، وقد كان عفو صلاح الدين على الصليبيين عاماً بل أنه أكرمهم إكراماً كبيراً لم يحدث مثله في التاريخ مع أن الصليبيين حن فتحوا بيت المقدس في عام ١٠٩٩م قاموا بذبح سبعين ألف مسلم، ونحن نرى ما يحدث الآن في فلسطين من اليهود بمساندة العالم الغربي كله.

ولذلك فإننا في حاجة اليوم إلى صلاح الدين آخر يجمع شمل المسلمين ويصلهم بخالقه سبحانه وتعالى ويسير بهم إلى الجهاد في سبيل الله، وبذلك ينقذ العالم الإسلامي من الفرقة والخنوع للغرب في كل ما يطلبه منه ويعيدهم إلى

الوحدة الإسلامية والإخوة الإيمانية، وبذلك يستطيعون أن ينقذوا بيت المقدس وفلسطين وافغانستان والشيشان وكشمير وغيرها من أيدي أعداء الإسلام.

وبذلك يعيدون للإسلام مجده وللمسلمين كرامتهم وعزتهم وينصرون الله فينصرهم الله تعالى، وبذلك يحققون معنى الآية الكريمة {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } "محمد:٧".

موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ

يبدو أن الطبيعة البشرية بما فيها من أثرة تتغلب على كثير من الأحيان على المصلحة العامة، وبخاصة حين لا يكون الإيمان عميقا في النفس، ويكون من نتائج ذلك ما تقرؤه في كتب التاريخ، وما نراه ونسمع عنه في عصرنا الحاضر من تنافس وتناطح وحروب، وكل ذلك يشفي به الفرد كما يشق به المجتمع.

ونحن نقرأ في كتب التاريخ أنه حين وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ هـ توزعت المملكة بين أولاده وأفراد أسرته، وأراد كل واحد منهم أن يثبت ذاته فنشأ لذلك الصراع بينهم، وبدلاً من أن يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم في أداء رسالتهم الإسلامية إذا بهم يتجاوزون هذا كله، ويبدأ بعضهم في الاستعانة بالصليبيي لتدبير المؤامرات ضد إخوانهم.

وتجرأ الصليبيون على المسلمين، فبدأت غاراتهم على المدن الإسلامية التي استردها صلاح الدين منهم بعد تضحيات كثيرة.

داخل المجتمع الإسلامي:

نحن نعرف أن الهزيمة تأتي من الداخل قبل أن تأتي من الخارج، ولذلك فلابد وأن نلقي نظرة على المجتمع الإسلامي في الفترة التي سبقت موقعة عين جالوت، لنرى ما وصل إليه وأثر ذلك في طمع أعدائه فيه.

كانت الحالة الداخلية في المجتمع الإسلامي حالة فرقة ونزاع وعدم استقرار، وهذا ما هيأ الجو إلى أن تكون الدولة الإسلامية منهزمة من الداخل قبل أن تهزم من الخارج على يد أعدائها.

في هذه الفترة كان جيش بغداد يبلغ عشرة آلاف فارس فقط، قلة في العدد وضعف في العزيمة وخور في الهمة، أما الخليفة فقد سلبت منه كل سلطاته. وملوك خوارزم الذين قامت دولتهم، والقوى في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس عشر وأصبح أكثر العالم الإسلامي خاضعاً لسلطاتهم، لم يبذلوا قواهم إلا في توسيع رقعة الحكم ودعمه وقمع خصومهم ولو أنهم وجهوا اهتماهم في تبليغ رسالة الإسلام إلى من يجاورهم لأمكنهم بذلك أن يضموه إلى عقيدتهم، وأن يستأنسوا وحشيته ولا قاموا بذلك لأنفسهم سياجاً يحيمهم.

خارج المجتمع الإسلامي:

في هذه الفترة من التاريخ، ظهر على المسرح الخارجي التتار – القوة الجديدة في العالم – التي عرفت بالوحشية المتناهية في معاملة البلاد التي تغير عليها ومما زاد الطين بلة أن الخليفة المستعصم استحوذ محمد بن العلقمي في سنة ٦٤٢هـ ولم يكن وزير صدق فزاد اضطراب نظام الحكومة، ودبر للإسلام وأهله ما وقع من الأمور التي لم يؤرخ أبشع منها منذ بنيت بغداد.

زحف التتار:

بدأ التتار زحفهم بقيادة ملكهم جنكيز خان نحو الجزء الشرقي للعالم الإسلامي إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد، وقاموا بتدميرها وإبادة علمائها سنة ٦٥٦ هـ زحف التتار أولاً نحو بخارى، فأتوا عليها من كل جانب حتى أصبحت كومة من تراب، ثم سمرقند حيث أحرقوها وأبادوا أهلها، وهكذا في جميع المدن التي مروا بها: همدان وقزوين ومرونيسابور وخوارزم.

وهزت غارات التتار العالم الإسلامي هزاً عنيفاً وغلب على الناس اليأس حتى دخل في قلوب الناس أن مقاومتهم مستحيلة، وشاع في الناس أن التتار لا يهزمون، ولذلك أصبح كل شيء مصدقاً، وقد قتلوا في مدينة الري وحدها أكثر من سبعمائة ألف مسلم، وفي بغداد استمر التتار يقتلون الأهالي أربعين يوماً، حتى أصبحت خاوية ج على عروشها، ولم يرع التتار عهداً ولا ذمة، وقد أنزل هولاكو الخليفة المستعصم في خيمة ثم دخل الوزير، واستدعى التتار أهل الحل والعقد ليحضروا المعاهدة فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وهكذا تخرج طائفة وراء لتلقي نفس المصير.

وكما فعلوا في بغداد فعلوا في حلب سنة ٦٥٨ هـ حيث استولوا عليها وأحرقوا مساجدها وجرت الدماء في الأزقة ثم وصل التتار إلى دمشق وسلطانها الناصر، يوسف بن أيوب فخرج هارباً ومعه الأغنياء ودخل التتار دمشق وتسلموها بالأمان ثم غدروا بأهلها ووصلوا إلى نابلس والكرك وبيت المقدس وغزة.

وقد كان للنصارى موقف غريب فقد استقبلوا التتار خارج مدينة دمشق وقدموا إليهم الهدايا، وكان معهم صليب يحملونه على الرؤوس وهم ينادون بشعارهم ويقولن: "ظهر الدين الصحيح – دين المسيح – ويذمون الإسلام وأهله ومعهم أواني الخمر يرشون منها على وجه الناس، ويأمرون كل من يجتاز الأسواق أن يقوم لصليبهم، فتكاثر عليهم المسلمون وردوهم إلى كنيسة مريم فوقف خطيبهم فمدح دين النصارى وذم الإسلام وأهله ودخلوا إلى الجامع بخمرهم، فاجتمع قضاة المسلمين وفقهاؤهم فدخلوا القلعة يشكون هذا إلى متسلمها "ابل سيان" فأهينوا وطردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم.

وأمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام، وسار على هذا النهج خلفاؤه.

ويلاحظ أن حاشية جنكيز خان كانت تضم عدداً كبيراً من النصارى من بينهم قائده "كتبغا" وفي الوقت الذي ذبحت قوات التتار المسلمين في مذابح بغداد وغيرها، لم يمس النصاري في تلك المدن بسوء.

موقف أوروبا:

وقد أيد النصاري في أوروبا تأييداً تاماً، ذلك لأنهم كانوا أصدقاء لهم، كما كان لهولاكو زوجة نصرانية وكان لذلك أثره في سلوك التتار فولي سوريا رجلاً نصرانياً بعد أن دخلها التتار، وكانت نظرة النصارى في أوروبا على أنهم حلفاؤهم، من هنا فكر البابوات في نشر النصرانية بين التتار كما فكر ملوك أوروبا في تأليف حلف بين التتار والمسيحيين لتدمير البلاد الإسلامية.

وكان لويس قد دعا قبل ذلك بعض رجال التتار فرنسا حيث فاوضهم على عقد اتفاقية عسكرية تنص على أن يقوم طرفاها بعمليات حربية ضد المسلمين يكون دور التتار فيها غزو العراق وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة الإسلامية، ويكون دور الصليبيين حماية هذا الغزو من الجيوش المصرية وتجريد جيوشهم لمنع نجدة القوات المصرية للمسلمين في آسيا، وبذلك تعزل مصر عزلاً تاماً.

يقول الأسقف "دي مسيل" في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية لقد كانت الحملة التترية عليالإسلام حملة صليبية بالمعني الكامل لها، وقد هلل له الغرب وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده النصراني كتبغا" الذي تعلق أمل الغرب في جيشهما ليحقق له القضاء على المسلمين وهو الهدف الذي اخفقت

في تحقيقه الجيوش الصليبية ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتاري خصوم المسلمين.

قطز:

في هذه الفترة كان يحكم مصر "قطز" ترى ماذا كان يحدث لو كان رجل عيره هو الذي يحكم مصر في هذه الفترة؟ لكن الله سبحانه وتعالى كان رحيماً بعباده فقيض للأمة الإسلامية في هذه الفترة ذلك الرجل الذي عزم على أن يقوم بدوره كاملاً في إعادة مجد المسلمين ومحو الآثار التي نجمت عن الأحداث التي قام بها التتار في البلاد الإسلامية.

أرسل التتار رسلاً إلى مصر ليشيعوا بين أهلها أن التتار خلقوا ليحكموا ويتحكموا في الرقاب، وعلى الناس أن يقبلوا ذلك ساجدين، وقد أثار هؤلاء المبعوثون الفتنة في البلاد منذ حلوا في ضيافة الملك، وقد كانوا يمنونه ويعدونه.

وكان رد قطز على ذلك أن أمر بقتل الرسل، فتم شنق أربعة منهم عند باب الساحة من ناحية الأزهر، وترك الخامس ليعود إلى هولاكو فيبلغه ما رأى.

لقد كان مع هؤلاء الرسل رجال مخصوصون للتجسس وليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات المدينة وما إلى ذلك من الأماكن الحربية، وكان مع الرسل كتاب من هولاكو يهدد فيه ويطلب التسليم وقد جاء فيه "يعلم الملك قطز إنه من جيش المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى الأقاليم وأنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه، فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم، فنحن لا نرحم من بكي ولا نرق لمن شكر، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب،

فما لكم من سيوفنا خلاص، فخيلولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال".

وقد عزم قطز على قطع أي أمل في حل غير القتال من المترددين والمنهزمين، فقتل الرسل وقال قولته الحاسمة: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جيمعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون مسلمين أمام الخالق.. ومن هنا بدأ يعد العدة المتكاملة لمقابلة التتار، فأرسل إلى ملوك المسلمين لتحقيق وحدة الغاية في مواجهة التتار، وانقلبت القاهرة إلى دار صناعة تعد للحرب عدتها.

العز بن عبدالسلام:

وجمع قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه نم أمر التتار، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، وحضر أصحاب الرأي في دار السلطنة بقلعة الجبل.

وقال ابن عبدالسلام: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على المسلمين قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقي في بيت المال شيد وتبيعوا ما لكم من الحوائط والآلات النفيسة ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه، ويتساووا هم والعامة.

وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. وقد وافقوا على قوله ولكن الكلام شيء والتنفيذ شيء آخر وبين الملك المظفر قطز للعز بن عبدالسلام صعوبة الآخذ من أموال الأمراء فقال له العز: لا أرجع في فتواي لرأي ملك أو سلطان، وذكره بالله وبالعهد الذي قطعه

على نفسه أن يقوم العدل وينظر في حال المسلمين ومصلحتهم واغلظ له في القول، وقد اغرورقت عينا الملك المظفر قطز بالدموع وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلاً: بارك الله لنا ولمصر فيك وإن الإسلام ليفخر بعالم مثلك، لا يخاف في الحق لومة لائم.

وقد عهد قطز إلى الشيخ عز الدين بالإشراف على التعبئة المعنوية، وإلى وزيره ابن عبدالرفيع بالإشراف على جمع الأموال وتسليح كل قادر على حمل السلاح، وشملت التدريبات البلاد روح من التشوق إلى الله ومثوبته والإقبال عليه والتوبة من الذنوب وكل واحد أصبح يتمنى لو مات شهيداً وسارع أصحاب دور اللهو إلى إقفالها وأصبحت القاهرة كأنها محراب عبادة. وقد صفى قطز مشكلاته مع المتقاعسين من المماليك حين عرض أمرهم على الأمة فأشارت بحبسهم حتى تنتهي المعركة كما طلب من الإفرنج أن يحددوا موقفهم واتفق معهم على الوقوف على العباد.

عين جالوت:

أحس قطز بأن التتار سيزحفون إلى مصر بعد الشام، فقد تواترت الأخبار بأن التتار قد استولوا على سورية وفلسطين، كما وصل إلى القاهرة كمال الدين عمر بن النديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب من قطز النجدة على قتال الكفار، وأرى الملك قطز أن خير وسيلة للدفاع الهجوم.

فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم في الشام، وقد كان خروجه في يوم الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ بجيوش مصر، ومن انضم

إليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، ونودي في القاهرة، والفسطاط وسائر أقليم مصر بالخروج إلى الجهاد.

وتقدم قطز إلى جميع الولاة بحيث الأجناد للخروج إلى القتال وسار حتى وصل إلى الصالحية فجمع الأمراء وكلمهم في الرحيل فأبوا وامتنعوا عن الرحيل فقال: يا أمراء المسلمين: لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزو كارهون وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد فليصحبني ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.

وقد كان قادر قطز يريدو الدفاع لا الهجوم للصيت الذي بلغهم عن التتار، وبذلك قطز جهوداً ضخمة في رفع معنويات الجماهير والقادة على حد سواء، وكان عليه أن يزيل أثار الحرب النفسية المغولية التي تمثلت في قول بعض الأمراء "ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومة التتار" وهنا قال قطز: "إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون مسلمين أمام الله تعالى.

وعمق جهده على حشد كل طاقاته المادية والمعنوية للحب، فلا يعلو صوت على صوت المعركة ولا يقبل عذر من قادر على الجهاد بمال وروحه، وقد كان هو قدوة لهم فسار على رأس جيشه حتى وصل إلى مدينة غزة والقوب وجلة، وفي غزة كانت جموع التتار بقيادة "بيدر" الذي كان ينتظر لقاء قطز بأمر من كتبغا الذي أمره بحرب قطز، وبعث قطز طلائع قواته بقيادة ركن الدين بيبرس لمناوشة التتار، واختبار قوتهم وتحصيل المعلومات، فالتقي بيبرس بطلائع التتار في عين جالوت بالقرب من نابلس وشاغل التتار حتى وافاه قطز على رأس القوات الأصلية من جيشة بينما استنجد بيدر بكتبغا الذي وفاة بجحافل قواته.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرون من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ نشبت بين الجيشين معركة حامسة وقد كان التتار يحتلون مرتفعات "سهل عين جالوت"، فانتصروا على جيش قطز في أول الأمر، وكانت طبيعة معاركهم الانقضاض على الأعداء تطبيقاً للحرب الصاعقة التي يمارسونها في حروبهم معتمدين على سرعة الخيل.

وكان القتال شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة وتغلغل التتار عمقاً في مسيرة قطز فانكسرت انكساراً شنيعاً، ولكن قطز حمل بنفسه في طائفة من جنده وأسرع لنجدة المسيرة حتى استعادت مواقعها واستأنف قطز الهجوم المضاد بقوات جنوده وهو يصبح: وإسلاماه.

واقتحم القتال وباشره بنفسه وأبلي في ذلك اليوم بلاء عظيماً وكانت قوة القلب مؤلفة من المتطوعين المجاهدين اتباع الطرق الصوفية وغيرهم من الذين خرجوا يطلبون الشهادة ويدافعون عن الإعلام بإيمان وكان قطز يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ويضرب لهم المثل بما يفعله من أقدام وبيديه من استبسال.

وكان من ذكاء قطز أنه أخفى معظم قواته النظامية في شعب التلال لتكون كمائن وبعد أن كر بالمجاهدين مرة بعد أخرى حتى تزعزع جناح التتار، برز المماليك من كمائنهم وأداموا زهم الهجوم بشدة وعنف.

وكان قطز أمام جيشه يصيح "وإسلاماه يا الله انصر عبدك قطز على التتار" وكان جيشه يتبعه مقتدياً بإقدامه وقتل فرس قطز من تحته، وكاد يعرض للقتل لولا أن أسعفه أحد فرسانه فنزل له عن فرسه وسارع قطز إلى قيادة رجاله متغلغلاً في صفوف أعدائه، حتى ارتكب صفوف التتار وشاع أن قائدهم كتبغا قد قتل فولوا الأدبار.

وقد نصحه اتباعه بالهروب ولكنه قال: الموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان.

ولم يضع المسلمون وقتاً فبدأ المسلمون فوراً بمطاردة التتار حتى دخل قطز دمشق في أواخر رمضان فاستقبله أهلها بالابتهاج، واستمرت المطاردة إلى قرب مدينة حلب فلما شعر التتار باقتراب المسلمين منهم تركوا ما بأيديهم من أسارى المسلمين ورموا أولادهم فتخطفهم الناس ونالوا من البلاد ما يستحقون.

١- إن كل الحسابا العسكرية تجعل النصر في جانب التتار، فقد كانت تجاربهم في الحرب طويلة، ولم يكن لقطز ولا لقادته مثل هذه التجارب ولا ما يقاربها كما كان جيش التتار في عدد لا يحصيهم إلا الله تعالي كما يقول المؤرخون كما أنهم اشتهروا بالوحشية فكانوا يقتلون الرجال ويستاقون الأسرى، ولذلك فقد هرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى المغرب كما هرب جماعات إلى اليمن وإلى الحجاز والباقون بقوا في خوف شديد يتوقعون الهزيمة وهكذا كانت الروح المعنوية في جيش المسلمين قبلا منارة، أما التتار فلم يهزموا في معركة قط، وقد استغل التتار حرب الأعصاب فكانوا يشيعون الشائعات المختلفة التي تؤثر في نفوس أعدائم، وقد ازداد جيش التتار بالذين التحقوا بهم من المرتزقة والصليبيين بعد احتلال الشام.

٢- كما أن جيش التتار كان يتميز بفرسانه المدربين، وكان تعداد فرسانه كبيرا مما يسر له سرعة الحركة وتطبيق حرب الصاعقة التي كانت من سمات حرب التتار.

٣- ثم إن موقع جيش التتار- في عين جالوت- كانت أفضل من مواقع جيش المسلمين، لأن المواقع كانت محتلة من التتار قبل وصول الجيش المصري إلى المنطقة، حيث كانت تحت سيطرتهم.

كما أن جيش التتار كان متفوقا على جيش قطز في قضاياه الإدارية إذا أنه كان يستند على قواعده القريبة في أرض الشام وهي التي استولى عليها واستثمر خيراتها بينما كانت قواعد جيش المسلمين الإدارية بعيدة عنه، لأنه كان يعتمد على مصر وحدها في إعاشته، والمسافة بين مصر وعين جالوت طويلة خاصة في تلك الأيام التي كانت المتطلبات الإدارية فيها تنقل على الدواب والجمال مخترقة الصحاري والقفار.

وعلى الرغم من هذا كله انتصر الجيش الإسلامي.

انتصر لأنه سار في اتجاه الإسلام الحق فالعلماء، وعلى رأسهم العز ابن عبدالسلام قدموا اإرشاداتهم التي نفذت بكل إخلاص وأمانة.

والشعب اتجه إلى الله تعالى مستغفراً من ذنوبه طالباً من ربه النصر.

وقطز القائد كان البطل والقدوة وكان يتميز بالشجاعة وإدارة القتال وتصميمه على محاربة التتار مهما كلفه ذلك، فليس أمامه إلا النصر أو الاستشهاد.

وحين اطمأن إلى نصر الله لم يأخذه الغرور بل ترجل عن فرسه ومرغ وجهه في التراب وسجد شكراً لله على ما أولاه من نصر باهر، وحمد الله وأثنى عليه ثناء عاطراً.

ولأول مرة في تاريخ الزحف المغولي الذي امتد نصف قرن يخرج إليه شعب ليقاتلهم قبل أن يصلوا إليه وينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، وهم القوة الجبارة التي اعتادت أن تستسلم الشعوب إليها قبل أن تصل إليهم.

خاتمة:

يقول "ديس ميستيل" معلقاً على هذه المعركة ":وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوته على الزوال يستعيد قوته ويصبح أشد خطراً من ذي قبل".

وقد بدأت بعد ذلك دعوة الإسلام تنتشر فجأة بين أفراد هذا الشعب ويتحقق على أيدي دعاة الإسلام دخول هؤلاء في الإسلام إذ بدأ حبة يسترب إلى نفوس التتار حتى دخلوا في دين الله أفواجاً بعد أن فعلوا ما فعلوا بالمسلمين.

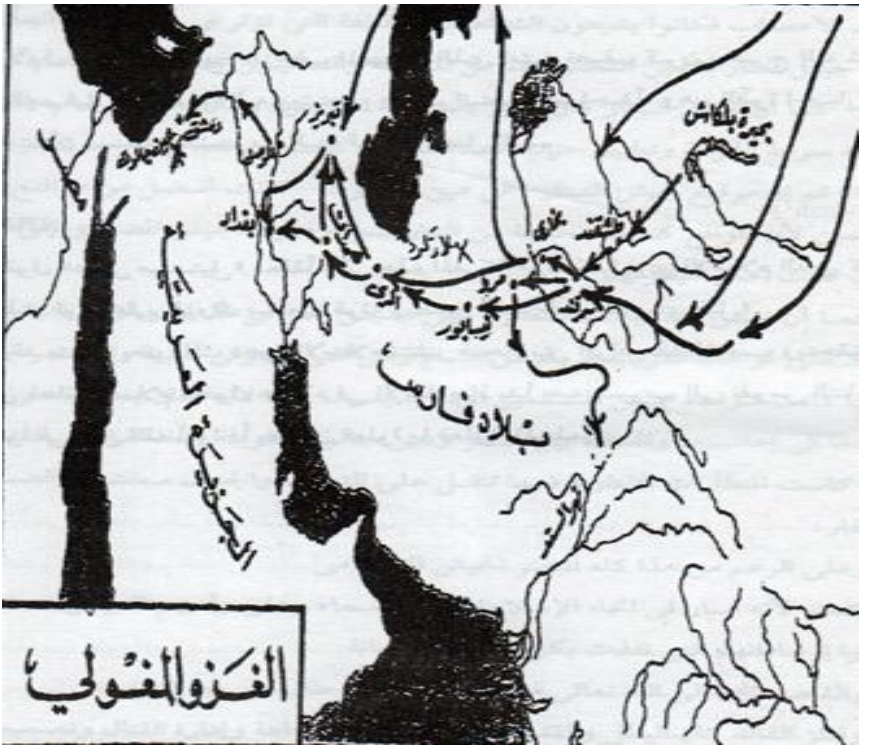

معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ

زرعت إسرائيل في وسط الدول العربية لتحقق للغرب كل ما يريد من الدول العربية – فالدول العربية مقسمة ووجود إسرائيل يزيد من الفرقة والخلافات بينها واليهود – بصفة عامة يتصفون بالغطرسة والكبرياء حتى على أبنائهم وفي ذلك يقول الله تعالى لهم:

{ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } "البقرة: ٨٧"

وقد أحاط الغرب إسرائيل بكل الرعاية والعناية وأعطاها كل ما تطلب من مال وسلاح ليحقق لها السيطرة الكاملة عي المنطقة حتى يصلوا إلى ما يريدون.

ومن هنا كانت إسرائيل تحس بأنها تستطيع أن تحقق ما تريد وأن تتوسع في اغتصاب الأراضي، وقتل الناس والأطفال والشيوخ.

وبعد هجوم إسرائيل على الدول العربية في عام ١٩٦٧م وصولها إلى قناة السويس واحتلالها للجولان في جولة خاطفة أشاعت في العالم أسطورة: أن إسرائيل هي الدولة التي لا تقهر.

ثم أقاموا خط بارليف على الضفة الشرقية من قناة السويس وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يقتحمه إلا بالقنابل الذرية كما قالت إسرائيل: إن سلاح طيرانها هو اليد الطويلة التي تستطيع أن تصل إلى أي مكان في العالم العربي ثم جعلها غرورها تقول في كبرياء وغطرسة أن العرب قوم مختلفون، وأنها ستتولي

القضاء عليهم لتنقذ العالم من شرهم، كما أنقذت أمريكا العالم من شر الزنوج المتخلفين فأبادتهم ونشر ذلك في كتب لهم.

وشعر العرب بالذلة والمهانة في كل مكان يحلون به كما أدركوا أن الاعتماد على روسيا وأمريكا إنما هو سراب فقد اتفقت الدولتان على ما سموه بالاسترخاء العسكري.

وقد مرت فترة طويلة كان العالم كله يظن أن الأمر لن يتغير – وكان الجيش المصري تحت الأرض ولا يدري رجاله ماذا يفعلون؟ ولا متى ينتهي هذا الوضع؟

وقد أتيحت لي فرصة أن أذهب إلى الجبهة وأن التقى ببعض الجنود والضباط المصريين وأن أتحدث إليهم، وقد كانوا في حيرة من أمرهم ولا يدرون متي ينتهي هذا الوضع المؤلم، وهنا بدأ العرب يغيرون ما بأنفسهم حتى يغير الله تعالي ما بهم، لقد كانت الجيوش العربية في حاجة ماسة إلى الإعداد المعنوي لإعادة الثقة بالنفس كما كانت الشعوب العربية في حاجة إلى مثل ذلك، وبدأ الحكام يعدون الجيوش للجهاد في سيل الله، لأن المجاهد يدرك بقطرته الليمة تكريم المولي له واختياره للجهاد في سبيل الله، فإما النصر وإما الشهادة وبدأ الإعداد المعنوي بمعونة رجال من العلماء منهم الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله تعاله، فقد دخلوا في وسط الجيش لإعدادهم المعنوي الكامل بعد أن كان هذا ممنوعاً من قبل.

وهذا ما جعل الجنود يستبسلون في الجهاد ضد أعداد الإسلام ليحققوا قول الله تعالى: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}" آل عمران: ١٦٠".

وبذلك أصبح كل جندي يجعل روحه ونفسه وقلبه مصدر إشعاع لكل عمل بطولي وجمال نفسي وجلال خلقي، وهذا الاتجاه يجعل الثقة في نصر الله تعالى محققه، لأن الله تعالى وعد من ينصره بالنصر فقال: { إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } "محمد:٧".

خط بارليف: عقب نكسة ١٩٦٧م واستيلاء اليهود على سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ووصولهم إلى قناة السويس أصابهم الغرور وأقاموا خط بارليف على الضفة الشرقية من قناة السويس، وكان عدد حصون خط بارليف ١٦حصناً محفورة على الشاطئ الشرقي للقناة ابتداء من بورفؤاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى بورتوفيق الواقعة على خليج السويس جنوباً في مواجهة ١٦٠كيلو مترا، ويصل عرضه إلى ٣٤ مترا، ويصل ارتفاعه إلى ١٥ متراً.

معطيات الموعد:

كان الإسسرائيليون يرون أن الجيش المصري ليس مهيئاً للحرب – وبدأ المعركة لم يكن يعرفه سوى شخصين – وقد اختير ليلة مقمر في الساعات الحاسمة في ليله تكون فيه سرعة جريانا لماء في القناة ملائمة للعبور ليله تكون فيه العمليات العسكرية بعيدة عن نقطة استعداد العدو ليله لا يكون العدو فيه مستعداً للدفاع.

وقد كان هجوم الجيش المصري مفاجأة لكل الإسرائيليين فقد عبر القناة أكثر من ثمانية آلاف جندي خلال المرحلة الأولى من العبور، وقد فوجئ العدو بأسلوب القتال المصري أيضاً. والصواريخ المصرية أسقطت ١٢٥طائرة تشكل ١٨% من السلاح الجوي الإسرائيلي وبعد ١٢ ساعة من بداية الهجوم كانت

القوات المصرية قد تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض على جميع خطوط المواجهة، بعد أن دمرت للعدو ١٥٠ دبابة واستطاعت قوات الدفاع الجوي إخلاء ساحة المعركة من طيران العدو بعد أن اسقطت له ٢٩ طائرة منها طائرتان هيليكوبتر.

كما جرت بعد الظهر معركة جوية في شمال الدلتا خسر العدو فيها ١٥ طائرة، وفي ذلك يقول الجنرال جوتين القائد الإسرائيلي لجبهة سيناء لوكالة الأسيوشتبرس: إن المصريين كانوا يقاتلون بشراسة انتحارية في أعنف رد على تحركاتنا.

خطة برج الحمام:

ذكر اللواء جمال حماد في مجلة منبر الإسلام سنة ١٤١٨ ما يأتي: في صباح العاشر من رمضان اتصل الجنرال جوتين بالجنرال ربراهام ماندر "البرت" قائد جبهة سيناء، وأبلغه أنه قد صدرت له أوامر برفع درجة الاستعداد وتعبئة الاحتياطي، وإن هجوماً عربياً على جبهتي القناة والجولان سوف يبدز في الساعة السادسة مساء.

وقد فوجيء الإسرائيليون مفاجأة تامة بالهجوم المصري إلى الحد الذي جعل أحد المهندسين الإسرائيليين "شيمون بال" يفاجأ بقصف المدفعية المصرية – ثم وجد رجال الصاعقة المصرية يقفون فوق رأسه، حيث وقع في الأسر – كما أن جنود بعض الدشم كانوا خارجها وهم يريدون المايوهات عند بدأ القصف المدفعي المصري، ولم يحاول أحد من قادة إسرائيل على جميع المستويات الافتراض بأن موعد بدء الهجوم ضدهم الذي تلا إبلاغه لهم وهو في السادسة مساء ربما يكون غير صحيح أو قصد به التضليل أو الخداع.

وقد تمكنت فرقة المشاة المصرية من سحق الدبابات الإسرائيلية.

وقد قام المصريون بشق ستين ثغرة في الساتر الترابي، كما أقاموا عشرة كباري وخمس معديات عبر القناة، وذلك خلال ست ساعات وارتفع علم مصر بعد ١٢ ساعة من بدء الهجوم كانت القوات المصرية قد تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض على جميع خطوط المواجهة بعد أن دمرت للعدو ١٥٠ دبابة غير العربات المدرعة.

وفي معركة أسقط طيار مصري بطل خمس طائرات إسرائيلية كما دمر ثلاث طائرات بصواريخه، ثم اقتحم بطائرته طيارتين للعدو وحين سقطت الطائرات في الجو أخذ الطيار البطل يهتف الله أكبر الله أكبر، كما أن طيارا آخر أسقط سبع طائرات وطائرا آخر دمر بطائرته صواريخ أرض جو للعدو، وقد تمكن رجال المظلات من تدمير ١٥٥ دبابة إسرائيلية بخلاف العربات المدرعة.

وبعد عبور القوات المصرية قناة السويس كان عدد الشهداء ٢٨٠ فقط بعد أن كان من المفروض أن يكون العدد ثلاثين ألفا، وكانت الخسائر عشرين دبابة، وقد تعرضت الدبابات الإسرائيلية خلال تقدمها من الخلف إلى الأمام لعشرات من قذائف الصواريخ والقنابل الحارقة للدروع، فقد انهالت قذائف الآ بي جي على الدبابات الإسرائيلية

أن معظم المصاطب المعدة لها من قبل على طول خط الحصون التي كانت تتيح الفرصة للاستتار من القذائف المهلكة التي تتعرض لها، فقد سبقها رجال الصاعقة المصريون إلى احتلالها وراح هؤلاء يمطرونها بوابل من قذائف آر بي جي مما جعلها تهرول في كل اتجاه دون نظام من الجحيم.

وقد تم سحق وتدمير كتائب المدرعات والصواريخ المضادة للدبابات والقنابل الخارقة للدور من الشاطئ الغربي للقناة ولم ينج من الدبابات الإسرائيلية المائة من الدمار والوصول بعد ذلك إلى خط بارليف سوى عدد قليل توزعت على بعض الحصون.

وغرور الإسرائيليين جعلهم لا يضعون أي خطة لإخلاء الحصون، ولذلك أصبحت الحصون مطوقة بالجيش المصري من كل جانب ومعزولة عن باقي القوات الإسرائيلية في سيناء وبعد أربعين ساعة من بداية الحرب تم تدمير ثلاثة ألوية إسرائيلية مدرعة، وقد فقد الإسرائيليون ثلثي دباباتهم كما حوصر حصن لسان بور فؤاد وعزل عن جميع الجهات، وقد استلسلم جميع من كانوا في الحصن وعددهم ٤٢ فردا منهم خمسة قتلى، وعشرون جريحا.

وبذلك انتهت أسطورة خط بارليف الذي لا يفتح إلا بالقنابل الذرية، وأصبحت الأعلام المصرية تخفق في شموخ فوق جميع حصون خط بارليف، وأثبت الجنود المصريون أنهم حقا خير أجناد الأرض كما قال النبي ﷺ وقد كان هتافهم الله أكبر الله أكبر الذي دوي في الفضاء كدوي الرعد فكان له مفعول السحر، فقد أمد الجنود بالقوة الروحية الهائلة التي مكنتهم من عبور قناة السويس التي كانت تعد من أصعب الموانع المائية في تاريخ الحروب، كما مكنتهم من اقتحام خط بارليف الذي كان الإسرائيليون يقولون إنه لا يفتح إلا بالقنابل الذرية.

عندما أخذت أرقام الخسائر البشرية تنكشف سيطرت مشاعر الكآبة والإحباط والمرارة والعزلة على الإسرائيليين وتزايدت الأمراض النفسية والقلق والتوتر بشكل جارف.

انهيار قادة إسرائيل :

لقد عبر القناة نحو ثمانية آلاف جندي مصري خلال المرحلة الأولى من العبور، وفوجئ العدو بأسلوب القتال المصري أيضا والصواريخ المصرية أسقطت ١٢٥ طائرة تشكل ١٨% من السلاح الجوي الإسرائيلي، وقد قالت جولدا مائير– رئيس الوزارة الإسرائيلية– في كتابها "حياتي":

ليس أشق على النفس من الكتابة عن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ حرب يوم الغفران ولن أكتب عن الحرب من الناحية العسكرية، فذلك أتركه للآخرين، ولكني أكتب عنها ككارثة ساحقة وكابوس عشته بنفسي، وسيظل باقيا طوال العمر، لقد شنت هذه الحرب علينا بأسلحة مفزعة كالصواريخ المضادة للدبابات التي كانت تحول الدبابات في لحظات إلى كتلة من النيران وتعجن أفراد الدبابات في داخلها، وكان يصعب معها حياة شخصيات الأطقم التي عجنت، ويقول موسى ديان في فبراير عام ١٩٧٤م:

إن حرب أكتوبر أثبتت للعالم أننا لسنا أقوى من مصر، كما أن هالة التفوق الإسرائيلي التي كانت إسرائيل توهم العالم بأنها أقوى من العرب سياسيا وعسكريا وأن العرب إذا تجاسروا وبدأوا الحرب فإن الهزيمة ستكون من نصيبهم، هذه النظرية قد انهارت تماما.

ويقول كريستوفر مايهو في كتابه "ممنوع من النشر" لندن ١٩٨٣: الجانب الإسرائيلي الذي عرف عنه الانتصار الدائم على العرب الذي صورته الصحافة الغربية المتعاطفة معه على أنه أسطورة قد تأثر بشدة بأحداث أكتوبر، فكل حصونه اقتحمت وكل طائرة فانتوم اسقطت لقد كان ذلك في نظر العالم انتصارا

مضاعفا للعرب، نتيجة التصور المسبق عنهم والتصور المسبق عن إسرائيل التي يعتد العالم رؤيتها في هذا الموقف.

لعنة أرض الميعاد :

بالإضافة إلى الخسائر العسكرية والسياسية والاقتصادية كانت هناك خسائر أخري فقد أصابت الإسرائيليين حرب العاشر من رمضان بما يشبه الزلزال ويتساءل الدكتور موسيه ديفيد – الأستاذ بجامعة تل أبيب – قائلا: لماذا أحابي دولة ترسل أبناءها لكي يقتلوا في حرب كل ست سنوات؟ ولماذا أشارك في التمسك بتلك الأخلاق المزيفة السائدة هنا؟ والأديبان يونان حنين ويعقوب روبفليت اللذين شاركا في حرب ١٩٧٦ جنودا في سلاح المشاة وفقد فيها يعقوب إحدى قدميه واعترفا بعد هزيمة العاشر من رمضان بأنهما أصيبا بصدمة جعلتهما يفكران في الهجرة ضمن أعداد كبيرة من الإسرائيليين هاجرت بعد انتهاء حرب العاشر من رمضان، الأمر الذي أصاب الحكومة الإسرائيلية بالهلع ودفع رئيس الوزراء في ذلك الوقت عام ١٩٧٦ إلى إلقاء خطاب وصف فيه هجرة الإسرائيليين بأنها سقوط الضعفاء وفي مجال الفن أفرزت هزيمة إسرائيل ظهور فرق غناء تميل إلى الانقياد إلى ما يسمى بالتقاليد التوراتية، وأهمها فرقة الط الطبيعة التي استمدت ألحانها من التراث الشرقي وبدأ أعضاء الفرقة يعلنون صراحة عن رفضهم للمجتمع الإسرائيلي وحنينهم إلى أوطانهم الأصلية التي قدموا منها.

موقف أمريكا :

لقد دعمت أمريكا إسرائيل عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وقد صرح السفير الإسرائيلي لكيسنجر وزير الخارجية الأمريكي بأن إسرائيل قد فقدت في الأربعة

أيام الأولى خمسة من سلاحها الجوي وربع دباباتها فقامت طائرة استطلاع أمريكية بعملية مسح واسعة أعقبتها طائرة استطلاع أخرى.

وفي يوم١٢/١٠ قام جسر أمريكي جوي إلى إسرائيل، واستخدم في هذا الجسر ٢٢٨ طائرة بلغت رحلاتها ٥٩٦ رحلة، بالإضافة إلى الجسر الجوي الذي قام بنقل الدبابات والمدافع والعربات المدرعة.

المعهد البريطاني :

وقد أصدر المعهد البريطاني تقريرا عن هذه الحرب ذكر فيه: أن عبور الجيش المصري لقناة السويس الذي تم في السادس من أأكتوبر كان يصعب تحقيقه بهذا النجاح حتى لو كان الأمر مجرد عملية تدريب دون عدو ومواجهة، وكل التقارير تشير إلى أن المصريين هاجموا بشجاعة بالغة وإصرار ودافعوا عما كان عليهم أن يفعلوا ذلك بعزيمة ونجاح ولقد صمد مشاتهم بكل تأكيد أمام هجوم كبير بالدبابات، وهي من أكبر الأشياء إثارة للرعب ولسوف يوافق كل المحترفين على أن عبور القناة قد تم بصورة رائعة وغير عادية، ولو فرضنا أن المرء كان مكلفا بكل أعمال تجمع القوات الهندسية والقيام بواجبات أركان الحرب والانطلاق بها دون أي غلطة لكان الأمر من الصعوبة بمكان، وكان انحيازه للأخطاء أمرا عرضيا جدا مع وجود عدد ولم يكن هناك من يصدق أن المصريين كانوا قادرين على ذلك منذ سنوات لكنهم فعلوه، لقد دافعوا بقوات هجومهم عبر القناة وحققوا النتائج التي أرادوها، لقد استيقظت روح القتال بكل تأكيد لدى المصريين.

صيحة الله أكبر:

قال صاحب كتاب حرب الساعات الست: لقد كان الإيمان بالله تعالى أقوى سلاح في المعركة، وكانت صيحة الله أكبر الله أكبر التي أطلقها الجنود وهم يعبرون القناة تتردد أصداؤها في جنبات سيناء وتشق عنان السماء أبلغ دليل على تمسك مجتمعنا بالمبادئ والقيم الأخلاقية الدينية، وأقوى برهان على بطلان ما أراد العالم أن يصفنا به بأننا شعوب قد تخلت عن العقيدة الدينية واتبعت مذاهب سياسية معروفة بخوائها الروحي ومحرومة من قوة الإيمان.

نتائج حرب العاشر من رمضان:

لقد كانت هذه الحرب سببا في وحدة عربية شاملة وحققت موقفا عربيا موحدا لم يشهده العالم العربي من قبل وعززت الوحدة الوطنية بصورة لم تشهدها مصر من قبل، وأعادت لشعب مصر ثقته بقواته المسلحة وقضت على أسطورة جيش إسرائيل الذي لا يقهر، كما غيرت الاستراتيجية العسكرية في العالم كله وحركت أزمة الشرق الأوسط بدرجة لم تحدث في أي وقت مضى، وقالت صحيفة هويتشيل الألمانية: إن الجنود العرب قد قاتلوا هذه المرة بصورة لم تعهدها فيهم ولم يتوقعها العالم منهم وخرجت قصص وبطولات يفوق بعضها الخيال كما أعادت إلى الأذهان انتصار المسلمين في بدر وفي عين جالوت وفي ملاذ كرد وفي غيرها وقال مراسل مجلة تايم : إن روح المقاتل العربي كانت عالية حدا وكان المصريرن يلوحون لنا فرحين وهم يهتفون: الله أكبر الله أكبر.

يقول د. جمال حمدان: إن أبرز ما حققته معركة العاشر من رمضان أنها أكدت فدائية المقاتل العربي واستبساله وإقدامه بلا تردد ولا تراجع عن تحقيق أهدافه مهما كان السلاح الذي يواجهه.

وقد أثبتت المعركة قدرة المقاتل العربي على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة إلى جانب التفوق في كل فنون القتال والتخطيط والتنفيذ وتشتت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الظالمة الكاذبة التي ركز العدو عليها كل جهوده ضد المقاتل العربي، وما هو خطير في تدمير خط بارليف وحصن الجولان إنما هو تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربي كانت رائجة، وقد أعاد العدو اكتساب حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربي.

والله أكبر سلاح تولت تدريسه المعاهد العليا والاستراتيجية العالمية والتحول من التغرب إلى الأصالة.

هكذا أثبتت معركة العاشر من رمضان وهي آخر المعارك الرمضانية الفاصلة في تاريخ الإسلام حتى الآن إن المسلمين قادرون على تحقيق النصر في كل زمان ومكان إذا ما اتجهوا إلى الله تعالى، وأخذوا بالأسباب وساروا في طريق الجهاد لا يبغون إلا إرضاء الله تعالى وتحقيق وظيفتهم في هذه الحياة، فالله سبحانه وتعالى هو الذي اجتباهم وجعلهم خلفاء في الأرض يعمرونها طبقا لمنهج الله تعالى، وينشرون فيها الأمن والسلام والعدالة والاطمئنان القلبي والراحة النفسية ولمثل هذا فليعمل العاملون.

خاتمة

وهكذا نرى أن صوم شهر رمضان يعطي للمسلم طاقة روحية هائلة لصلته بخالقه، الصلة التي تصل بالمسلم الصائم إلى مرحلة التقوى.

وبذلك يكون الصوم تربية خاصة للمسلم، تربية على الصبر وعلى ما لا يصبر عليه عادة فهو بذلك يتحرر من ذاته ويتربى على ضبط أعصابه فلا يثور

لأول وهلة، بل إن الصوم يقيم الاعتدال في طبيعة المسلم وحركته، وإلى جانب ذلك فإن الصوم يساعد على إقامة مجتمع إسلامي سليم متحاب متعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وهذا المجتمع له قيادة حكيمة يرجع إلها في كل أمر من أمور حياته وتكون تصرفاته كلها منسجمة مع تعاليم الإسلام مهما تكون مخالفة للعادات والتقاليد.

والمسلم الصائمن قبل أن ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله فإنه يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر مع نفسه الأمارة بالسوء، ومع نزعات الشيطان وهو محتفظ بعبوديته لخالقة فالإسلام جاد ليكون إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ومن العبودية للشيطان ومن العبودية للنفس الأمارة بالسوء.

ولم يكن من المصادفة أن يفرض الصوم في العام الذي فرض فيه الجهاد في سبيل الله لرد العدوان ونشر الإسلام فالصوم هو تقوية الإرادة العزمة ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد.

والصوم ليس حرماناً وحداً من حرية الإنسان، بل إنه يطهر النفس ويوجه عقل الصائم كي يسترد حريته، حرية إرادته وحرية تفكيره فإذا استردهما استطاع السمو إلى أعلى مراتب الإيمان الكامل بالله تعالى الواحد الحق.

وصوم رمضان فرصة لتربية المسلم عن طريق القدرة، حيث يقتدي الصغير بالكبير وحيث يقتدي المسلمون جميعاً بالنبيﷺ عن طريق دراسة القرآن والسنة، وعن طريق دراسة القرآن والسنة وعن طريق تكوين القيم التي أمر بها رسول الله، وبذلك يكون الصوم تربية عملية كاملة للمجتمع الإسلامي وتدريب على احتمال

مشقات الحياة. وصوم رمضان يجعل المسلم متكيفاً مع نفسه ومع مجتمعه ومع خالقه، وهذا ما يجعله قادراً على الجهاد في سبيل الله والانتصار على أعداء الإسلام، وهكذا نجد أن شهر رمضان على امتداد الزمان والمكان كان فيه الخير كل الخير للمجتمعات الإسلامية الذين استطاعوا ان ينتصروا على أعدائهم، وأن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الإسلامية ونشر العدالة والأمن والمساواة بين الناس جميعاً، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين.

وقد كانت أول المعارك الرمضانية الفاصلة في تاريخ الإسلام هي غزوة بدر الكبري التي أثرت تأثيراً كبيراً في مجتمع الجاهلية الأولى فبدؤوا ينظرون إلى الإسلام نظرة أخرى، وبدؤوا يدخلون في دين الله أفواجاً وأفراداً وكانت آخر معركة رمضانية فاصلة هي معركة إسرائيل مع المصريين التي أبطلت مزاعم الإسرائيليين الذين كانوا يقولون إن الجيش الإسرائيلي هو الجيش الذي لا يهزم، وإن خط بارليف لا يمكن أن يخترق إلا بالقنابل الذرية ولكن معركة رمضان سنة ١٣٩٣هـ أظهرت كذب هذه الادعاءات، وبدأ الغرب كله يعيد تفكيره في قوة إسرائيل وفي إمكانات العرب، كما بدؤوا يدرسون في الكليات الحربية في العالم الأساليب التي قام بها الجيش المصري حتى استطاع أن يحرز هذا النصر الذي لم يتوقعه أحد في العالم.

وهكذا نرى أن شهر رمضان هو شهر الخير وشهر التربية وشهر النصر وعلينا أن نعيد صياغة أنفسنا صياغة إسلامية كاملة جاعلين شهر الصوم هو شهر التربية الجسمية والتربية العقلية والتربية النفسية وتربية الصلة القوية بالله تعالى، وبذلك نضمن النصر الدائم على أعداء الإسلام لأننا ننصر الله فينصرنا الله ويثبت

أقدامنا، وبذلك نفوز برضوان الله في الدنيا وفي الآخرة ولمثل هذا فليعمل العاملون.

الفهرس

مقدمة ٥

الجهاد في سبيل الله ٩

غزوة بدر الكبري في العام الثاني للهجرة ١٩

فتح مكة في العام الثامن للهجرة ٣٥

خطبة النبيﷺ موقعة القادسية – رمضان سنة ١٥هـ ٤٩

فتح الأندلس – رمضان ٩٢هـ ٦٧

المعركة الإسلامية المنسية "ملاذكرد" سنة ٤٦٣هـ ٧٣

موقعة الزلاقة – سنة ٤٧٩هـ ٨٣

موقعة حطين – رمضان سنة ٥٨٣هـ ٩٧

موقعة عين جالوت – سنة ٦٥٨هـ ١١١

موقعة العاشر من رمضان – سنة ١٣٩٣ هـ ١٢٣